سعاد محمد الصباح

كلمات خارج حدود الزمن

Souad.M.S

2008

سعاد محمد الصباح

كلمات
خارج حدود الزمن

2008

لوحة الغلاف للكاتبة

جميع الحقوق محفوظة
لدار سعاد الصباح

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

دار سعاد الصباح
الكويت - مركز الدولية التجاري - طابق التراس
ص. ب: ٢٧٢٨٠ صفاة - الرمز البريدي 13133 الكويت
تلفون : ٢٤٥٣٠١٩ - فاكس : ٢٤٥٧٩٥٤
البريد الإلكتروني: E-Mail: souadelsabah@yahoo.com

بناية حبٍّ.. اسمُها الكويت

بناية حبٍّ.. اسمُها الكويت

تختلط في أعماقي، في العيد الوطني للكويت، مشاعرُ الأمومة، بمشاعر الانتماء القومي، بمشاعر الزهو، والكبرياء، والثقة بالنفس.

فالكويت، هي قبل كل شيء رحِمٌ تكوّنا جميعاً داخل جدرانه الدافئة، وشجرة طيبة أكلنا منها أطيب الثمار. وبحر كريم أعطانا أغلى ما عنده من لآلئ.. وسقف حنون التجأنا إليه، فزودنا بالحب والسلام والطمأنينة.

إن الكويت، رغم شمسها الحارقة، وطقسها الأغبر، ومناخها الصعب، تبقى في عيني جنة الجنّات.. فالجنة حالة نفسية وعاطفية قبل أن تكون أي شيء آخر.

ذلك أن العلاقة بين الوطن وأبنائه... لا تقوم على نشرة الأرصاد الجوية... بقدر ما تقوم على التموّجات الفكرية والنفسية والعاطفية.

فالوطن، هو هذه الرائحة القوية التي تتمسك بثيابك،

وحقائبك ، ومسامات جلدك ، في أي مكان تكون فيه على سطح الكرة الأرضية .

أهم ما في الكويت في نظري ، أنها بيت ، بكل ما تعنيه كلمة البيت من دفءٍ ، وأمان والتصاق بالأشياء . . .

وهي أيضاً مظلّة ، بكل ما تعنيه كلمة المظلّة ، من رعاية ، وحماية ، وإحساس بالأمان .

لكنَّ أهم ما في وطننا هو ناسُهُ الطيبون . .

هو هذه الأيدي التي يمسك بعضها بعضاً . .

هو هذه الشفاه التي تضحك معاً . . . وتبكي معاً . .

هو هذه القلوب التي تنبض في وقت واحد ، كقلوب العصافير ، أمام كل حادثة وطنية أو إنسانية .

هو هذه الإرادة الشعبية الواحدة ، أمام العواصف والأحداث الكبرى .

وباختصار ، هو هذا الجدار القوي ، الصامد أمام الرياح الهوجاء ، وتحديات العصر .

هذه هي معجزتنا الكويتيّة . . .

فالكويت بناية ارتفعت بحجارة الحُبّ . . وبسواعد الكويتيين ، وعرقهم ، ودموعهم ، وضوء عيونهم . . .

والبنايات التي تبنى بالحب . . . تزداد طوابقها ارتفاعاً مع الزمن . . . وتزداد أساساتها قوة ومتانة . .

وكل ما أتمنّى لبلادي في عيدها القومي ، أن تبقى دائماً وطناً للحب ، والحرية ، والتسامح . . وأن تتقدم نحو القرن الواحد والعشرين ، وهي مسلحةٌ بسلاح العلم ، والمعرفة ، والطموحات الكبرى .

إن الكويتيين القدامى الذين صارعوا البحر ، وانتصروا عليه ، يجب أن يكونوا قدوة للأجيال الكويتية الطالعة . . . بحيث يستمر الحلم الكويتي الكبير ، ويزداد مع الأيام توهجاً وإبداعاً ونضارة .

* * *

سيطلع الربيع

سيطلع الربيع

أيّها المقاتلونَ . .

لا توجد أغنية في العالم تستطيع أن تغني انتصاراتكم . .

ولا توجد قصيدة عربية أو غير عربية تستطيع أن تكون بمستوى قاماتكم . .

ولا توجد لغة في العالم تستطيع أن تقول بطولاتكم . .

لقد كسرتم جدار اللغة . .

وانتصرتم على الحروف الأبجدية . .

صدقوني ، لم يعد لدينا لغة قادرة على استيعاب معجزاتكم .

الأبجدية العربية تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً فقط . . فماذا يفعل الأدباء والشعراء ليغطوا مسافة ثمانية وعشرين قرناً من البطولة .

كيف يقصّ القصّاصون أخباركم؟؟

كيف يروي الروائيون حكاياتكم؟؟

إنني أعترف لكم أننا نلهثُ وراءكم أيها الأبطال . .

الكلماتُ تلهث . .

والتشابيهُ تلهث . .

والاستعاراتُ تلهث . .

والموسيقى تلهث . .

كلما صنعنا لكم قصيدةً ، أو روايةً ، أو لوحةً أو جداريةً . . وجدنا إبداعكم أعظم من إبداعنا . . . وعطاءكم أجملَ من كل فنوننا التشكيلية . .

كلما شاهدنا صوركم . . . ورأينا الشعر الذي تكتبونه بأجسادكم ، وسمعنا موسيقى الرصاص ، تعقدنا من أوزاننا ، وقوافينا ، وكفَرْنا بموسيقى الشعر . .

أيّها الأبطال ،

أيّها السيوف المرصعة بأسماء اللّه ، والمطلية بحروف الذهب . .

أيّها الذين يحملون بأيديهم مفاتيح الأنهار ، والشجر ، والمطر ، وعناوين الوطن .

أيّها الذين يخبئون في جيوبهم خرائط مستقبلنا ، وطفولة أطفالنا ، وحنطة بيادرنا ، وزغاريدَ نسائنا ، ورايات حريتنا . .

أيّها المدافعون عن خبزنا ، وفرحنا ، وحكايات أجدادنا ، وأراجيح أطفالنا . . .

أيهّا العمالقة الذين لا يمكن للحلم أن يصعدَ إليهم . . .

أيّها المتشبثونَ بالتراب ، كما يتشبث الجنين برحم أمّه . .

أيّها الذين يتشكلون في ضمائرنا كما تتشكلُ اللؤلؤةُ في ضمير المحارة . .

أيّها الذين يشتعلون كالبرق في كتاب التاريخ . .

أيّها الواقفون في وجه الجرادِ الذي يريدُ أن يأكل كلّ شجرة من أشجار الكويت .

أيّها الثابتون على الخطِ الفاصل بين الخير والشر ، بين الحضارة وبين الهمجية ، بين رائحة الورد ورائحة التعصب ، بين الذين يكتبون القصيدة الجميلة ، وبين الذين يكتبون شواهد الموتى ، بين الذين يرسمون اللوحة ، وبين الذين يرسمون وجهَ الخراب ، بين من يغتسلونَ بضوء القمر ، وبين من يغتسلونَ بدماء البشر . . .

أيهّا الأبطال الذين يخبئون في جيوبهم قواريرَ اللونِ الأخضر . . ويخبئون في معاطفهم سنابلَ النصرْ . .

ويخبئون للشعب الكويتي مواعيدَ العشب . . والمطر . . والحرية . .

إن ربيعَ الحرية قادم . .

والربيعُ أولُه . . . وردة . .

* * *

صندوق العجائب

صندوق العجائب

العالم العربي صندوق عجائب كبير . .

فيه سلاطين يحكمون بغير ما أمر اللّه . .

وفيه وزراء يبصمون على الأوراق دون أن يروها . . .

وفيه عساكر مدججون بالأوسمة دون أن يربحوا معركة واحدة . . .

وفيه كتاب مرشحون لجائزة نوبل . . وليس لهم مؤلف واحد . . وفيه حاشية تمتص كالعلق دم الناس . . .

وفيه أيدلوجيات تباع وتشترى في سوق الملابس المستعملة .

وفيه رجال دين يتاجرون بكلام اللّه ، ويستوردون عمائمهم من «فالنتينو» . .

وفيه جرائد ومجلات أكثر من الهمّ على القلب ، إذا عصرتها بعصارة لا ينزل منها قطرة حقيقية . . .

وفيه شعراء يشحذون على البحر الطويل . . وآخرون يشحذون

على بحر الرجز . . وآخرون يكتبون قصائدهم بالخط الكوفي على برميل نفط . .

وفيه بطل واحد . . وأربعة وأربعون حرامياً . .

وفيه عادل واحد . . وتسعة وتسعون ظالماً . .

وفيه مدرسة واحدة . . وألف سجن . .

وفيه عاشق واحد . . وألف رجل بوليس . .

وفيه قصيدة واحدة . . وخمسون بلاغاً عسكرياً . .

وفيه طبيب واحد . . وألف دجال . .

وفيه مثقف واحد . . وألف مدّعي ثقافة . .

وفيه نبي واحد . . ومليون قاطع طريق . .

وفيه وردة واحدة . . . وخمس عشرة ميليشيا . .

وفيه حمامة واحدة . . وألف بارودة صيد . .

وفيه قمر واحد . . . وألف سيارة مفخخة . .

وفيه متعبد واحد . . وعشرة آلاف تاجر سلاح . .

وفيه مطرب واحد . . وعشرة آلاف مسدس كاتم للصوت .

وفيه ياسمينة واحدة . . وعشرة آلاف مشنقة . .

العالم العربي صندوق فرجة كبير . .

فيه رجال يلبسون ملابس النساء ، ونساء يلبسن ملابس الرجال . .

وفيه فرسان يذوبون تحت الشمس كقطعة الشكولاتة . .

وفيه خيول لا تصهل . .

ودبابات لا وقود فيها . .

وطائرات لا تطير . .

وضباط يجلسون خلال المعركة تحت السيشوار . .

وفيه وزارات حرب لا تحارب . .

ووزارات تخطيط لا تخطط . .

ووزارات عمل لا تعمل . .

ووزارات تموين ليس عندها رغيف خبز . .

وإذاعات تصنع من الحبة قبّة . . ومن النملة فيلاً . .

ومن القطرة بحراً . . ومن الهزيمة نصراً مبيناً . .

العالم العربي مسرحية من مسرح اللامعقول ، ليس لها سياق ، ولا موضوع ، ولا ينظمها منطق ولا فكرة ولا هدف .

فهناك أشخاص يدخلون إلى المسرح ولا تعرف من أين . . وهناك أشخاص يأخذون دور البطولة ولا تعرف لماذا . . وهناك أشخاص يتزوجون اليوم . . ويطلقون بعضهم البارحة . . ولا تعرف لماذا؟

وهناك أشخاص يعشقون بعضهم من الوريد إلى الوريد . . ويذبحون بعضهم ، بعد دقيقتين ، من الوريد إلى الوريد . . ولا تعرف لماذا؟

وهناك شخص يختفي في منتصف الفصل الثاني من دون سبب ، وعندما تسأل عن سر اختفائه ، يقول لك أحد عمال المسرح إن سيارة سوداء ، ليس لها أرقام . . أخذته من الباب الخلفي للمسرح . . إلى بيت عمه . .

ومن هو عمه؟

- إنه مباحث أمن الدولة . .

* * *

للنساء فقط!

للنساء فقط!

«للنساء فقط» . . . آه كم أكرهُ هذه الجملةَ البوليسية لأنها تحملُ كلَّ معاني التمييز والتفرقة العنصرية، وتقيم جداراً من الإسمنت بين المرأة والرجل، نحاولُ بكل طاقاتنا هدمَهُ . .

«للنساء فقط» . . . آه كم أشعر بالمرارة وخيبة الأمل، حين أكتشف أن جدارَ الجليد لم ينكسر بعدُ، وأن الطريقَ لا تزالُ طويلةً طويلة، لاغتيال الخُرافة وقتل التنين . .

كلُّ كلامٍ عن الثورة والتغيير سيبقى كلاماً في الهواء . . إذا بقيت المرأةُ ممنوعة من استعمال عقلها أو كل هذه المشاعر والأحاسيس تراثٌ إنساني مشترك بين الرجل والمرأة . . .

فالرجل لا يحزن وحدَهُ، ولا يفرح وحدَهُ، ولا يُحبُّ وحدهُ، وكذلك المرأة، فلماذا إذن نستعملُ المقصَ في التفريق بينهما . . .

إذن فالثقافة يجب أن تُوظَفَ بالدرجة الأولى لتصحيح النظرة السلفية والحجرية والبوليسية التي ينظر بها مجتمعنا إلى الأنثى . . .

الثقافة يجب أن تكون في خدمة كل الموْؤودات،

والمسحوقات ، والخائفات ، والمحاصرات ، والمحترقات بنار الرجل ونار النفط . . ثقافةُ المرأة يجب أن توظف لكسر باب المعتقل . . وإلا كانت ثقافةُ المرأة عملاً استعراضياً كعمل عارضة الأزياء . . .

* * *

بين المرأة - الثورة
والمرأة - الديكور

بين المرأة - الثورة.. والمرأة - الديكور

إن كل الصرخات التي أطلقت لتحرير المرأة العربية كانت صرخات في الفراغ، لأنها تهمل جانباً مهماً من عملية التحرر.. وهذا الجانب هو تحرر الرجل العربي نفسه من عقده التاريخية الموروثة، ومن فكره الإقطاعي والاستبدادي. فالمسؤول الأول والأخير عن جميع الممارسات الدكتاتورية التي مارسها الرجل من جانب واحد كان الرجل، كما أن المسؤول عن «تشيؤ» المرأة وتحويلها إلى أداة من أدوات السخرة كان الرجل أيضاً.. فهو الذي استأثر منذ البداية بجميع مواقع العمل والتشريع والتملك وجعل المرأة تابعاً أو هامشاً في حياته..

إن المرأة العربية مع قليل من الاستثناءات التي لا تكاد تذكر لا تزال منفية خارج مملكة الرجال، فهي لا تستطيع أن تحكم ولا أن تشرع، ولا أن تشترك في التوجيه السياسي، والدول العربية القليلة التي تكرّمت على المرأة ببعض الحقوق السياسية إنما فعلت ذلك كجزء من ديكور الحكم.

والملاحظة الغريبة واللافتة التي توصلت إليها أن جميع الأنظمة العربية، الرجعية منها والتقدمية، تكاد تكون متفقة على استبعاد

المرأة عن اللعبة وإبقائها في منطقة الظل ، فالسلفية في النظرة إلى المرأة واستمرار النظر إليها على أنها مواطنة من المرتبة الثانية كعبيد روما ، يتساوى فيها اليمين العربي واليسار العربي معاً .

ويؤسفني أن أقول إن قضية تحرر المرأة العربية تأخذ شكل التمييز العنصري والقتال التاريخي بين الأبيض والأسود ، كما كان يجري في روديسيا وجنوب أفريقيا ، أو تأخذ شكل الحروب التي تقع بين الأقليات والأكثرية الحاكمة ، فالمرأة بكل أسف لا تزال الأقلية رغم كونها الأغلبية ، وليس هذا الخراب الشامل الذي يحيط بنا ، وليس تخلخل هياكل المجتمع العربي السياسي والاجتماعي والاقتصادي سوى نتيجة غياب قطعة رئيسية في المحرك الكبير الذي يصنع طاقة الأمة ، هذا المحرك لا يعطي مردوده الكلي الكامل لأنه يعمل بنصف طاقته ونصف إمكاناته .

إن عقل المرأة يعيش في المنفى فهو كأي لاجئ سياسي ممنوع من ممارسة اختياراته قولاً وتصرفاً وتعبيراً .

المرأة العربية ليست مضطهدة في كينونتها فحسب ، وإنما هي مضطهدة في فكرها وموهبتها أيضاً ، حيث احتكر الرجل لنفسه حتى مصادر الكتابة والإبداع والقول ، وأصبحت المرأة تعيش على هامش حياة الرجل . . فما لم يتحرر الرجل من عقده التاريخية فسوف لن تتحرر المرأة أبداً . .

مذبحة المجلات النسائية

لهن سوى أن يتجملن ، ويتكحلن ، ويتعطرن ، ويلبسن الحرير والديباج ، بانتظار استدعائهن إلى مقصورة السلطان . .

وفي هذا الزمن الذي يقف فيه الإنسان العربي ، رجلاً كان أو امرأة ، على حافة الهاوية ، لا أدري ماذا يمكن أن تضيفه مجلات من هذا النوع إلى قضية المرأة ، سوى مزيد من اللامبالاة ، ومزيد من الكسل ، ومزيد من البلادة .

وفي وقت تحاول المرأة العربية فيه أن تتجاوز وضعها التاريخي الموروث ، وموقعها الهامشي على خريطة المجتمع ، وتحاول أخذ مكانها الطبيعي في ورشة البناء ، تأتي مثل هذه المجلات لتبقيها في مكانها وتشغلها بالسفاسف والترهات ، وتؤكد صورتها القديمة كدمية وجارية . . .

كل هذه المجلات العربية المهجرية لا تخاطب بكل أسف إلا جسد المرأة . . ولا تحاور إلا قشرتها الخارجية . . أما عقلها فليس له مكان على صفحات المجلة الثورية والرائدة . . باعتبار أن مخاطبة عقل المرأة لا يجلب شركات الإعلان . . ولا يساعد على تسويق المجلة . .

ولا أدري لماذا أشعر ، وأنا أتصفح هذه المجلات النسائية بحكم الفضول ، بأنها تستفزني . . وتصفعني . . وتستهين بعقلي وثقافتي ، وتتعامل معي كشيء من الأشياء لا كقيمة إنسانية . .

ثم لا أدري لماذا أشعر شعوراً قوياً بأن هذه المجلات تصدر خارج التاريخ ، وخارج المشاكل والأزمات السياسية والاقتصادية التي تسحقنا في المنطقة العربية وخارج الحروب التي تأكل الأخضر واليابس . . .

هذه المجلات التي يسيل اللعاب أمام ورقها المصقول وطباعتها الجميلة ، وإخراجها الخرافي ، هل هي حقاً وسيلة لإطلاق المرأة من زنزانتها . . أم أنها فخ لاصطيادها؟ . .

وصدقوني إذا اعترفت لكم بأنني طالما تمنيت أن يباح مثل هذا الورق الثمين والإخراج الراقي لعشرات الشعراء والروائيين والكتّاب العرب ، ليطبعوا عليه أعمالهم الفكرية التي تصدر بمنتهى الرداءة . . وعلى ورق يشابه الورق الذي يستعمله البقالون وبائعو اللب والترمس . .

لماذا يخصص هذا الورق الجميل للحديث عن فالنتينو وكوكو شانيل وكريستيان ديور وإيف سان لوران و برونو ماغلي و بياجيه وبشرون وكارتييه وبقية اللاعبين بعقول النساء ، ولا يخصص لطبع انطولوجيا راقية للشعر العربي ، أو لأعمال التشكيليين العرب ، أو لطبع موسوعات للأطفال على مستوى موسوعات الأطفال في أمريكا وأوروبا .

لماذا نرمي ملايين الدولارات لنقنع نساء العالم الثالث بأن يغيرن ألوان عيونهن من اللون الأسود إلى اللون البنفسجي . . وأن يغيرن بشرتهن المعتقة بشمس آسيا .. إلى بشرة لم تر الشمس من عشرة آلاف سنة . . وأن يغيرن شعرهن الليلي الفاحم . . إلى شعر برتقالي . . أو كحلي . . أو أخضر . . على طريقة «البانكس»؟ هل المرأة العربية بحاجة إلى المزيد من التغيير . . والمزيد والمزيد من الإثارة . . والمزيد من التحريض على حفظ المنكور «وبختها الأسود» ، وتشجيعها على إرهاق ميزانية زوجها بمستحضرات وعقاقير ، وزيوت ، وكريمات التطرية وباروكات ورموش صناعية ، وزجاجات لا يوجد في داخلها بعد تحليلها في المختبر سوى ماء الحنفيات؟!

لماذا تحرص المرأة الخليجية على أن تكون إنكليزية؟ . . والمرأة الدمشقية على أن تكون فرنسية؟ والمرأة المصرية أن تكون سويدية أو فنلندية؟

لماذا نخلط خرائط الأنوثة ونغير خصائص الأجناس وندفع نساء الطبقات المتوسطة والفقيرة إلى التململ من أوضاعهن الاجتماعية والزوجية والركض وراء الحلم المستحيل؟

إنني أعترف أن كل أنثى ضعيفة أمام إغراءات الجديد . فهي

تريد أن تكون الأجمل ، والأرشق والأقرب إلى قلب الرجال ، ولكننا يجب ألا نستغل مركب الأنوثة ، لنغرقها في الأحلام الكاذبة ونجعل حياتها مع من حولها جحيماً . إن ناشري الصحف النسائية لدينا مطالبون بأن يدرسوا الأرض التي يقفون عليها ، والمجتمع الذي يتوجهون إليه ، فليست كل النساء العربيات الأميرة ديانا . . وليست كل العاملات والموظفات العربيات كارولين ابنة أمير موناكو . . وليست كل الفلاحات العربيات قادرات على الاستحمام كل ليلة بالعسل كما تفعل صوفيا لورين ، وكلوديا كاردينالي . . .

وأخيراً أتساءل : لماذا تتحمس رؤوس الأموال العربية لتمويل هذه المطبوعات الخنفشارية ، في حين يحتاج ملايين الأطفال في العالم العربي إلى مدرسة يدخلون إليها . . . وكتاب يقرأونه . . . وفي حين يضطر بعض الأطفال إلى التقاط قطعة الخبز اليابسة من صناديق النفايات؟

لماذا نمارس هذا السفه الطباعي ، ونشتري أضخم آلات «الأوفست» وفرز الألوان . . وأشهر الكتّاب والصحافيين في حين يطلب سكان المدن المحاصرة الفتوى الشرعية من مفتي المسلمين ليسمح لهم بأكل لحم موتاهم؟ . . .

سامحوني . . إذا أخرجت البحصة من فمي . . فإنني أكاد أختنق . . .

المشكلة في الأنوثة

المشكلة في الأنوثة

المشكلة الأولى في نظري ، هي في الأنوثة ذاتها . فالأنوثة ، هي حكم صادر على المرأة عند ولادتها مباشرة ، وهو حكم نهائي وقاطع غير قابل للنقض ، أو للاستئناف ، أو التمييز .

هذا الحكم الذي لا مثيل له في تاريخ الإرهاب العالمي ، يصنّف المرأة فوراً في مرتبة مواطني الدرجة الثانية ، كما كان يحدث في القانون الروماني ، ويفرض عليها الجزية الجسدية والفكرية ، كما يفرض عليها الطاعة والامتثال للسيِّد ، سواء كان هذا السيِّد أباً ، أو شقيقاً ، أو ولداً . . أو مجتمعاً . . أو تقليداً أخذ شكل القانون . .

الأنوثة في عين المجتمعات العربية . . تُهْمةٌ لابدَّ من تكذيبها . . وفضيحةٌ لابدَّ من إنكارها . . وعارٌ لابدَّ من غسله . .

فالأنوثة في المجتمعات العربية تعني الضعف ، والهشَاشَة ، وسرعة العطب . . والتخلّف الذهني . .

فالنساء لدينا . . إمّا «قارورات قابلاتٌ للكَسْر» . . وإما كائناتٌ

«بنصف عقل وبنصف دين» . . وإما أسماك للزينة نتفرج عليهن من وراء زجاج أكواريوم . .

والمرأة لدينا حالة سلبية . . فهي تسْتهلكُ ولا تُنتج . . وتأخذ ولا تعطي . . وتتلقى كلمات الغزل ولا تستطيع أن تغازل رجلاً . . وتستلم رسائل الحب ولا تستطيع أن تكاتب أحداً . . وتقرأ إبداعَ الرجال ولكنها لا تبدع . . وتطرب لما يقول الشعراء ولا يسمح لها بأن تكون شاعرة . . وتنجب عشرة أطفال من زوجها من دون أن تحدّق في وجهه أو ترى لون عينيه . .

ولا يمكن فِعْلُ أيّ شيء ، في اعتقادي ، إذا لم يُلْغَ الحكم التاريخي الصادر بحقّ المرأة غيابياً . . وتستعيد حقوقها المدنية ، وعقلها المصادر . . وأملاكها المنقولة وغير المنقولة . . باعتبارها لم تبلغ سن الرشد . .

وها قد مرّت آلاف السنين ، ولا يزال القضاة في مكانهم ، والشهود في مكانهم . . . ووزارات العدل في مكانها . . ولا تزال المرأة العربية تطالب برفع «الحراسة» عن عقلها وجسدها . ولا يزال القضاة يقولون لها كلما راجعتهم : عودي بعد ألف سنة . . لأنك لم تبلغي سن الرشد . . بعد .

إنني أعتقد أن هناك خللاً أساسياً في المعادلة الاجتماعية . .

ومادام المنطق العام مازال يعتبر الأنوثة غلطة كبرى ، أو لعنة كبرى ، أو جريمةً كبرى ، فلا أمل في تصحيح أي شيء . . .

وما يهمني ككاتبة عربية من الخليج ، أن تتصحح صورة المرأة الكاتبة في أنظار رجال القبيلة . . وأن يفهموا أن الكلام ليس امتيازاً للرجال وحدهم ، وأن لدى المرأة جهازاً عصبياً مثل أجهزتهم العصبية ، ودماغاً يشتغل كأدمغتهم . . ومشاعر بشريّة كمشاعرهم . . وأصابع تعرف كيف تكتبُ بها . . وتخدشُ بها . . وتدافع بها عن نفسها عند اللزوم . .

إن الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساغان بروايتها الأولى «مرحباً أيها الحزن» استطاعت أن تخرب الدنيا . .

وحيث نشرت الكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي في الخمسينات روايتيها «أنا أحيا» و «سفينة حنان إلى القمر» . . خربوا بيتها . . وجرجروها إلى المحاكم . .

إنني أذكر هاتين التجربتين الفرنسية واللبنانية ، لأثبت أن الرجال العرب يتصرفون «كقبضايات» أو «كفُتُوّات» الأحياء القديمة ، الذين إذا رأوا فتاةً تأخذ صباحاً سيارة المدرسة . . يغمى عليهم . . .

وأنا في تجربتي الشعرية «فتافيت امرأة» لاحقني غبار

«الطوز» . . وسيوفُ الإنكشاريين ، وعيونُ أسماك القرْش . . في كلّ مكان . . واعتبرني رجال القبيلة خارجة عن بيت الطَاعة .

إذن فبيتُ الطاعة الثقافي لا يزال موجوداً . . والأقفال ، والجنازير ، والسلاسل المعدنية لا تزال موجودة . . وذكور القبيلة لا يزالون يرتعشون إذا رأوا فتاة تحمل حقيبة المدرسة . . أو تقرأ رواية . . . أو ديوان شعر . . وكل استفتاء عن حرية المرأة . . وأنتم بخير . .

* * *

المرأة والوطن

المرأة والوطن

تستطيع المرأة في البلاد العربية أن تقود سيّارة إذا كانت قد بلغت سنَّ الرشد . . وكانت تحمل شهادة لقيادة السيارات . .

لكن هذه المرأة ذاتها . . لا يسمح لها «بقيادة الوطن» . . . رغم بلوغها سنَّ الرشد . . وحصولها على أعلى الشهادات الجامعية . .

الوطن هو سيارة الذكور فقط . . فهم الذين يملكون مفاتيحه . . وهم الذين يجلسون خلف مقعد القيادة . . وهم الذين ينطلقون بسرعة جنونية . . ويرتكبون المخالفات . . ويتجاوزون الإشارات الحمراء . . ويقتلون المارة . . إلى أن تستقر السيارة - الوطن - في قعر الهاوية . .

ولأن الوطن هو سيارة الذكور فقط . . فإن حوادث الطرقات لا تنتهي . . والحروب لا تنتهي . . والكوارث لا تنتهي . . والمنازعات الإقليمية والعالمية لا تنتهي . .

في زحام السيارات المتسابقة نحو النفوذ ، أو نحو الحكم ، أو نحو السلطة . . تبقى المرأة في عالمنا العربي واقفة على رصيف

وهكذا يربح الرجل دائماً . . وتخسر المرأة دائماً . . لأنها على ما يبدو لي ، سعيدة بخسارتها . . أو أنها تلعب بالأصل . . لتخسر . . .

الرجل متشبّث بالحكم . . لأنه يعرف أن معارضة المرأة له هي معارضة وهمية . . أو شفهية . . وأنه عندما يطرح الثقة بصلاحيته للحكم . . فسوف يفوز بأكثرية الأصوات (٩٩,٩٩ بالمئة) . . .

وفي غياب المعارضة النسائية القوية والمنظّمة ، سيبقى الرجل محتفظاً بكل السلطات التشريعية . . والتنفيذية . . والقضائية . . حتى تقوم المرأة بانقلابها الكبير ، وتصدر بلاغَها رقم ١ . .

والواقع أن الرجل يحكم . . لأنه لا يجد من ينازعه في الحكم . . لذلك فإن جميع المظاهرات ، والمسيرات ، والاحتجاجات التي قامت بها المرأة لتصحيح وضعها الإنساني . . «فرطت» في منتصف الطريق . . وعادت المتظاهرات إلى بيوتهن ، وهنَّ سعيدات باللقطات التلفزيونية التي أُخذت لهن خلال المسيرة . .

أما الرجل فقد شاهد المسيرة على التلفزيون ، واستمع إلى كل الخطابات التي اتهمته بالتسلّط والدكتاتورية . . ثم تحول إلى قناة أخرى . . ليشاهد مباراة لكرة القدم . . .

* * *

الثورة من خلف الشبابيك!

الثورة من خلف الشبابيك!

يحتفل العالم هذه الأيام بعيد المرأة العالمي ، وهو عيد عالمي بكل تأكيد لأن المرأة هي نصف العالم .

عيد المرأة العالمي ، يحاول أن يذكر الرجال على وجه الخصوص ، بأن هناك امرأة . . وأن لها عيداً . . وأنها موجودة بالفعل صوتاً وصورة على شاشة حياتنا .

وإذا كان على الرجل أن يتذكر دائماً بأن الحياة شراكة ومناصفة وأن المرأة ليست صفراً على الشمال ، في عملية البناء الاجتماعي .

إذا كان لابد من تنشيط ذاكرة الرجل بين عام وعام ، وتذكيره بأنه خالف مواد العقد الاجتماعي ، وأخل بقواعد المناصفة التي نصت عليها الشركة المساهمة التي وقع عليها الطرفان ، فإنه لابد من تذكير المرأة ، بأنها كانت شريكة كسولة وخاملة ومهملة في إدارة أعمال الشركة المساهمة . . فهي لا تذهب إلى مكتب الشركة في الأوقات المحددة ، ولا تحضر اجتماعات مجلس الإدارة ، ولا

تهتم بمراجعة ملفات الشركة وحساباتها ، وإنما تقضي نصف أوقات العمل ، بين الكافتيريا . . وصالون الحلاقة القريب من مركز الشركة . . وإجراء مكالمات هاتفية خاصة لا علاقة لها بطبيعة عملها . .

هذا بالإضافة إلى أنها تستلف من صندوق الشركة أضعاف مرتبها الشهري . هذا التقصير المهني من جانب المرأة جعل المسؤولين عن إدارة الشركة ، يسحبون ثقتهم منها ، ويستغنون عن خدماتها تدريجياً ، ويطلبون منها أن تعود إلى بيتها لممارسة أعمالها في تربية الأطفال ، والتدبير المنزلي .

ومن هنا ارتفعت الشكوى ضد دكتاتورية الرجل ، وأنانيته وعقليته الاحتكارية .

وأنا هنا ، لا أدافع عن الرجال ، فأنا كنت ولا أزال ضد دكتاتوريتهم وسلطويتهم ، واستئثارهم ، ولكنني أعتقد أن إهمال المرأة وكسلها ولا مسؤوليتها ، هي التي دفعت الرجل إلى استلام السلطة . . لأن الحياة لا تقبل نظرية الفراغ في السلطة ، فكما الفراغ مرفوض في الحياة السياسية ، فإنه مرفوض في عالم الحب والزواج والاقتصاد .

الرجل استولى على مفاتيح الشركة ، لأنه رأى الأبواب

مفتوحة . . والملفات مرمية على الأرض . . والسكرتيرات في إجازة . . الرجل أخذ لأنه لم يجد من يرده ، واغتصب السلطة لأنه لم يجد من ينازعه ، ويبدو أن النضال النسائي كان نضالاً نظرياً واستعراضياً ، وأن مطالبها بالمساواة لم تكن مطالب جدية .

إن المرأة تريد نصراً بدون قتال ، وتريد ربحاً دون أن تشارك في رأس المال ، وتريد الوصول إلى الجنة . . دون عرق ودموع ومعاناة . . وإذا كان وضع المرأة لم يتغير منذ مئات السنين ، فلأن المرأة كانت قابلة بشرطها الوجودي والبشري والاقتصادي ، ولم تناضل من أجل تغييره . .

طبعاً هناك استثناءات للقاعدة ، ولكن الوضع النسائي بشكل عام وضع مجمد ومؤجل إلى أجل غير مسمى . .

والرجل ، رغم تاريخه السلطوي والإقطاعي والاحتكاري ، ليس مسؤولاً مسؤولية كاملة عما يجري في سجن النساء .

فثمة نساء لا يرغبن في مغادرة السجن ويخفن مواجهة شمس الحرية . .

وثمة نساء يعتبرن الحصول على ثلاث وجبات طعام مجانية أفضل من مغادرة الفراش الدافئ مع الفجر ، وركوب أوتوبيس الدولة إلى مركز العمل .

وباختصار ، هناك كسل تاريخي لدى المرأة جعلها تخسر قضيتها . . وجعل الرجل يسحب السجادة من تحت قدميها . . قد يكون هذا الكلام موجعاً في واقعيته لكن الحديث عن ثورة نسائية دون أن تكون هناك ثورة ، هو نوع من التمنيات الجميلة ، وأحلام اليقظة ، لا توصل إلى أي مكان . .

* * *

عندما تصير الأم وطناً

عندما تصير الأم وطناً

في هذا العالم الملوث الذي يحاصرنا ، تبقى الأم هي الغابة الخضراء الوحيدة التي يمكن أن ننام تحت أشجارها الوارفة . .

وفي هذا العالم المتخشب العواطف ، والنرجسي ، والأناني ، تبقى الأم هي ينبوع الحنان الوحيد الذي يمكن أن نغتسل بمياهه العذبة .

وفي هذا العالم الذي لم يعد فيه قديسون ، ولا أنبياء ، تبقى الأم هي الكتاب المقدس الذي يمنحنا الإيمان والثقة وراحة النفس . .

وفي هذا العالم المهدد بالإشعاعات النووية ، والمسلّح حتى أسنانه ، تبقى الأم هي منطقة السلام الوحيدة التي ترفع رايات الرحمة والمحبة . .

وفي هذا العالم المادي ، الاستهلاكي ، الراكض وراء منافعه وملذاته الأرضية ، تبقى الأم هي الجزيرة الوحيدة التي تتعاطى زراعة الورد . . وصيد السمك . . وكتابة الشعر . .

وفي عالم عربي يأكل بعضه بعضاً ، وتنهشه الأحقاد والخلافات الطائفية والمذهبية والعقائدية ، تبقى الأم هي المؤسسة

الوحيدة التي تنادي بالحب ، وتدعو الأخوة المقاتلين إلى إلقاء أسلحتهم ، والعيش المشترك تحت سقف العروبة الواحد . . .

وفي عالم عربي تخلى عن عبادة اللهّ إلى عبادة نفسه ، وتخلّى عن قيمه العظيمة ، ومبادئه الأخلاقية التليدة ، وميراثه الفكري والحضاري العميق ، تبدو الأم وكأنها المرفأ الأخير الذي يمكن للعالم العربي أن يلتجئ إليه للوصول إلى شاطئ السلامة . .

إن عيد الأم ، يجب أن لا يمر بنا ، دون استكناه معانيه السامية ، فهو ليس عيداً تقليدياً نتبادل فيه الهدايا وبطاقات التهنئة ، وباقات الورد . .

فليت العرب يتعلمون من عيد الأم ، كيف يحبون بعضهم ، وكيف يعانقون بعضهم ، وكيف يتعايشون ، وينامون تحت سقف واحد .

إن عيد الأم هو مناسبة كبرى نتعلم منها كيف نكون متحضرين . . وكيف نكون طاهرين . . وكيف نكون مثاليين . . وكيف نكون عاشقين . .

فياليت رجال السياسة في الوطن العربي يتعلّمون من أمهاتهم ، كيف يمارسون الحكم بعدالة ، ورحمة ، وتجرد ، ومساواة .

وليتهم يتعلمون من أمهاتهم ، كيف يخدمون الرعية ، وكيف

يعملون من أجل سعادتها ورخائها ، وكيف يحترمون حقوق الإنسان ، ويؤمنون له لقمة الخبز . . ونسمة الحرية .

قد يسألني سائل : وما علاقة عيد الأم بالسياسة والسياسيين؟

وأجيب عن هذا السؤال بأن الأم ليست مدرسة بيولوجية أو عضوية فحسب . . ولكنها مدرسة سياسية كبرى يتخرج فيها كل الرجال الذي يحكمون العالم . .

فإذا استوحى هؤلاء الرجال من سلوك وأخلاقيات أمهاتهم فإنهم بكل تأكيد سيحكمون شعوبهم بصورة نموذجية . .

أما إذا كان هؤلاء الرجال لم يرضعوا حليب أمهاتهم جيداً ، ولم يعرفوا الدفء في أحضانهن . . فإنهم سيحكمون شعوبهم بصورة شيطانية . . ويصبون عليها كل أحقادهم وعقدهم ، وإسقاطاتهم النفسية .

إذن ، فالأم ليست مدرسة واحدة . . ولكنها مجموعة مدارس وجامعات نتعلم منها جميع ألوان المعرفة ، ونأخذ عنها دروس اللغة ، والتاريخ ، والجغرافيا . . كما نأخذ عنها دروس الوطنية والانتماء القومي .

لذلك ، فأنا أعتبر عيد الأم عيداً قومياً . . وأحتفل به مع أولادي باعتباره عيداً قومياً وعرساً من أعراس الوطن .

من ينقذ العصافير من العاصفة؟!

إنني أشعر بأنهم يتامى مع أن آباءهم موجودون . . وأشعر بأنهم متخلفون عقلياً . . مع أنهم يذهبون إلى المدرسة . . وأشعر بأنهم مكتئبون رغم الألعاب التي يحصلون عليها . . وأشعر بأنهم لا يجدون الدليل ، والموجِّه ، والمرشد الذي يدلّهم على الطريق ، وبأنهم يتخبطون في المجهول ، كما يتخبط مركب ليس له قائد . . ولا بوصلة . .

وفي العصر الذي تتضخم فيه عبادة الذات ، وعقد الأنانية ، والفردية . . لم يعد لدى الإنسان وقت يمارس فيه أبوته . . أو أمومته . . أو يمارس فيه غريزة الحنان . .

إنه عصر تصلب الشرايين ، وتصلب العواطف ، وتصلب المشاعر الإنسانية من الدرجة الأولى . .

حتى القبلات التي كنا نطبعها على خدود أطفالنا قبل ذهابهم إلى المدرسة نسيناها . . حتى وجبات الطعام التي كنا نتناولها معهم في البيت . . ألغيناها . . إننا الآن نعطيهم المصروف المدرسي . . ونقول لهم «دبّروا حالكم» . .

فهل دخلنا مع أولادنا مرحلة «فك الارتباط» . . فأصبحوا يزوروننا كباقي الزوار . . وينامون في المنزل كما ينامون في الفندق؟ . .

هل توقف الكلام بيننا وبين أولادنا وانكسر الحوار؟ هل أصبحت غرف البيت مجموعة من الكانتونات، كل كانتون له شخصيته، وسيادته، وأفكاره.. وميزانيته الخاصة؟..

شيء مرعب، هذا الذي يحدث في العائلة العربية. فمن هو المسؤول عن هذا التشرذم، والتفكك، ودخول القلب العربي إلى الثلاجة؟..

من المسؤول عن هذا العصر الجليدي الذي دخلنا فيه، فلا كلمة حب.. ولا همسة شوق.. ولا لمسة حنان؟..

هل صارت الأمومة والأبوة ألقاباً رسمية.. كألقاب الباشا، والبيك والأفندي، والآغا.. موجودة في سجلات الأحوال المدنية فقط؟..

هل هي أوروبا التي نقلت إلينا جبالها الجليدية، وثلوجها الشمالية، وبلادتها العاطفية؟ أم أن العالم كله صار بلا قلب.. وصارت العواطف الإنسانية تباع في السوبر ماركت مع زجاجات الحليب، والأطعمة المثلجة؟..

هل انتقلت إلينا هذه المجاعة العاطفية الرهيبة.. فأصبحنا نبحث عن رغيف الحب فلا نجده.. وعن طعم الحنان فلا نعثر عليه؟.

أتصور أن المسؤولية في هذا ذات شقين : الشق الخارجي المتعلق بطبيعة العصر الحديث . هذا العصر الذي جعلته الثورة الصناعية كائناً ميكانيكياً صرفاً . فجرّدت عواطفه ، وألغت قيمه الروحية ، وجعلت الإنسان الغربي جزءاً من الآلة التي يعمل عليها . .

والشق الثاني إقليمي ، ويتعلّق بطبيعة العصر العربي . .

فهذا العصر ، كما نلاحظ جميعاً ، هو عصر الانفراط ، والتمزق ، والشتات العربي ، سواء على الصعيد السياسي ، أو على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، حيث سقطت قيم أخلاقية واجتماعية وأدبية كانت جزءاً لا يتجزأ من التراث العربي والشخصية العربية . .

وقد كان من الطبيعي أن ينعكس هذا التفكك القومي على الوضع الاجتماعي والعائلي ، بحيث لم يعد أمام الأطفال أي جدار نفسي يستندون إليه . . . وأي منارة قومية أو ثقافية أو تعليمية يسترشدون بها في هذا الظلام الدامس . .

إن الفكر الفئوي والطائفي والمذهبي أصبح سيّد الموقف . . ولم يعد بإمكان الآباء والمعلّمين والمربّين أن يقدموا لأولادهم ، وتلاميذهم أفكاراً تتناقض تناقضاً جذرياً مع ما يرونه على أرض الواقع . .

حتى اللغة العربية دخلت في المأزق . . . فالعائلات العربية الكثيرة التي اضطرت تحت الضغوط الاقتصادية أو السياسية أو الأمنية أن تغادر أرض الوطن . . حملت معها مأزق اللغة . . لأن وجود أطفالها لسنين طويلة خارج حدود اللغة العربية ، سيجعلهم أشبه بالمستشرقين الذين يتكلمون اللغة العربية باللهجة الأرمنية . . .

بالإضافة إلى أن الأطفال العرب الذين يولدون في المنفى ، أو يترعرعون في المنفى ، سيكونون مستلبين ، وغرباء عن قضاياهم القومية . . بل سيكونون بلا انتماء حقيقي إلى أي مكان . . .

وربما كان مأزق الانتماء هو أخطر المآزق التي يواجهها الأطفال والشباب العرب . . الذين وجدوا أنفسهم في بيئات غير بيئاتهم . . وأمام لغات غير لغاتهم . . وعادات غير عاداتهم . .

هذا هو المأزق الكبير في نظري ، بل هذه هي التراجيديا القومية واللغوية التي تواجهها الأجيال العربية القادمة . .

فما الطريقة التي تنقذ بها هذه الأجيال من الضياع؟

وما المخطط الذي يكفل حماية هذه العصافير العربية الصغيرة من الوقوع في أسنان العاصفة؟

إنني أقرع جرس الخطر ، لأنني أعتبر أن الأطفال العرب هم العمود الفقري للمستقبل العربي كله . فإذا تخلينا عنهم ، وتجاهلنا

مشاكلهم الجسدية والعقلية ، والثقافية ، والقومية ، سقطوا هم ، وأسقطوا الهيكل معهم . .

صحيح أن مشاكل العالم العربي كثيرة ومتشابكة ، وصحيح أن المشاكل السياسية تطغى على كل المشاكل الأخرى ، ولكن المشاكل السياسية تبقى مشاكل عابرة وموسمية ومزاجية ، أما مشاكل الطفولة فتأتي على رأس الأولويات ، لأنها الحجر الأساسي في عمارة الوطن . .

إن الطفل العربي هو الذي سيرسم صورة الرجل العربي القادم ، وهو الذي سيحدد ملامح المستقبل . فإذا فشلنا في ضخّ دم الوطنية ، والانتماء ، والعلم ، وحب المعرفة ، وروح الاكتشاف والإبداع ، والارتباط بالقيم الروحية ، وبالأرض وبالتراث ، في هذا الجيل ، فإن الأجيال القادمة ستكون أجيالاً غير منتمية لأي زمان . . وأي مكان . . وغريبة عن الوطن والتاريخ . . وضائعة في مهب الريح كالطائرات المصنوعة من الورق . . . .

الطفولة هي رأسمالنا الباقي ، فإما أن نربح الجائزة الكبرى ، وننقذ آخر ما تبقى من أشجار الوطن الخضراء . . وإما أن نفشل ، فتحترق الغابة بكل ما فيها من شجر وعصافير . . ونحترق معها . . .

الأطفال هم صناعة المستقبل

الأطفال هم صناعة المستقبل

عندما يحتفل العالم بعيد الطفولة ، فهو يحتفل بواحد من أجمل أعياده ، وأغناها بالمعاني والدلالات .

فالطفولة ، هي هذه الأرض الطيبة ، التي يمكننا أن نزرع فيها كل الأحلام المستحيلة التحقيق .

إنها المنجم الأسطوري ، الذي نستخرج منه الذهب ، والفضة ، وملايين الأحجار الكريمة .

الطفولة هي صناعة المستقبل والشعوب التي لا تهتم بصناعة أطفالها لا مستقبل لها .

الأطفال هم الخيول الرابحة في سباق المسافات الطويلة ، وهم الاستثمار البشري والثقافي والحضاري العظيم الذي يتفوق في مردوده على كل الاستثمارات الاقتصادية . .

ازرع طفلاً صحيح الجسد والروح ، وخذ وطناً صحيح الجسد والروح .

هذه هي المعادلة التي يجب أن نضعها دائماً أمامنا . .

إن خريطة الطفولة في العالم ، ليست خريطة سعيدة ، ففي هذا العالم المتفجر يدفع الأطفال ثمن سباقات الكبار . . وثمن صراعاتهم ، وحروبهم الساخنة والباردة .

وإذا كان أطفال الشمال لا يزالون قادرين على الحصول على زجاجة الحليب ، وكوب الكاكاو ، وقطعة الخبز كل صباح ، فإن ملايين الأطفال في جنوب آسيا ، وفي أفريقيا ، وفي فيتنام ، وبنغلاديش ، والسودان يأكلون من جلودهم ومن هياكلهم العظمية .

إننا لا نحسد الطفل السويدي ، أو الدانمركي ، أو السويسري على وزنه الزائد . . ولكننا نريد بالمقابل أن يزيد وزن الطفل المصري ، والسوداني ، والصومالي ، والهندي ، والباكستاني ، والفلسطيني ، واللبناني .

وبالتالي ، نريد أن تكون خارطة الطفولة في العالم ، جنوبه وشماله ، خارطة عادلة وإنسانية ومتوازنة . .

ثم إننا لا نستطيع ونحن نحتفل بيوم الطفولة أن ننسى الأطفال العرب في فلسطين المحتلة ، الذين تحاصرهم قوات الاحتلال الصهيونية في مخيماتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتقتلهم كالعصافير بطلقات الرصاص البلاستيكي . . وتمارس عليهم أبشع أساليب التعذيب والتجويع والقمع .

أما ما يعانيه أطفال العرب في الحروب العبثية التي تدور تارة في فلسطين ، وتارة في السودان ، وتارة في العراق ، وتارة في اليمن ، فقد تجاوز حدود العقل ، ليصبح هجمة بربرية . . على الحياة والأحياء . إن الأطفال يعيشون بين القذيفة والقذيفة . . والرصاصة والرصاصة . . فلا مدرسة يذهبون إليها . . ولا كتاب يقرأون فيه ، ولا حديقة يتنزهون فيها ، إن مشوارهم الوحيد هو بين أرحام أمهاتهم . . وبين المقبرة .

إنني لا أستطيع أن أكتب عن الطفولة ، دون أن تفيض مدامعي حزناً على بعض الأطفال العرب الذين لا يعرفون ما هي الطفولة . . ولم يروا في حياتهم شجرة . . وبحراً . . وعصفوراً . . ولم ينعموا في عيد ميلادهم بلعبة يلعبون بها كبقية الأطفال . إن يوم الطفولة يجب أن يكون يوماً لجميع أطفال العالم دون تفريق في اللون أو الجنس أو المنطقة الجغرافية .

هكذا أفهم عيد الطفولة . .

إذ ليس من العدل في شيء أن ينام الطفل الشمالي على سرير من القطيفة . . وينام الطفل الجنوبي على سرير من البكاء . . كما ليس من العدل أن يأكل الطفل الأوروبي فطيرة محشوة بالتفاح . . ويأكل الطفل العربي فطيرة محشوة بالجراح .

لا تذبحوا عصفور الحرية..!!

لا تذبحوا عصفور الحرية..!!

لا يحق لأحد أن يقص جناح الصحافة الكويتية بدافع المروءة والخوف على مستقبل الكويت ، كما لا يحق لأحد أن يطفئ قنديل الحرية في وطننا لأن إطفاء هذا القنديل سيلقينا في الظلام ، ويدخلنا إلى مغارة لا باب لها .

إن الحرية هي إرثنا الكبير في الكويت ، وبفضلها استطعنا أن نقاوم غزو الغزاة . . ونكسر سلاسل الحديد في أرجلنا . .

الحرية هي مطلب الإنسان منذ أن كان الإنسان ، ولا يمكنني أبداً أن أتصور إنساناً يضعون على شفتيه الأقفال ، وهو الذي كرمه الله في كتابه الكريم بقوله : ﴿ألم نجعل له لساناً وشفتين﴾ .

وإذا كان القدماء قد عرفوا الإنسان بأنه «حيوان ناطق» ، فكيف نسمح لأنفسنا في الكويت ، وفي بدايات القرن الحادي والعشرين ، أن نلغي هذا التعريف بجرة قلم ، لنعرف الإنسان بأنه «حيوان ساكت» . . أو حيوان مرغم على السكوت . . إن اللسان هو العضو المركزي في الإنسان وكل سلطة تفكر باستئصال ألسنة مواطنيها . . إنما تشنق نفسها على أعمدة الجهل . وعلى هذا الأساس ، فإن

أحزان الكتاب العربي

أحزان الكتاب العربي

ما هو موقعه على خريطة العالم العربي؟ وما حاضره؟ ما مستقبله؟ أسئلة تحفر في رأسي في الليل والنهار .

أما حاضر الكتاب العربي فلا يدعو إلى البهجة أبداً لأن الكتاب يعيش في حال حصار دائم ، ويعامل كما يعامل السجناء . . والمعتقلون السياسيون .

أما مستقبله ، فلا أحد يستطيع أن يتنبأ به إذا بقيت الحال كما هي ، لأن جميع الدلائل تشير إلى أن شمس الكتاب العربي آخذة في الأفول ، وأنه في سبيله إلى الانقراض ، كما تنقرض أي شجرة لا تستطيع الحصول على غذائها الأرضي ، والهواء الضروري لتنفسها .

الكتاب والإنسان . . كائنان يتشابهان تشابهاً عظيماً في بنيتهما ، وتشكيلهما ووظائفهما البيولوجية ، بل إنهما يتشابهان حتى في دورتهما الدموية ، وجهازهما العصبي وجهازهما التنفسي .

فكما للإنسان رئتان وقصبة هوائية . . فإن للكتاب أيضاً رئتين وقصبة هوائية ، وكما يمارس الإنسان رياضة المشي ، وتسلق الجبال ، والسباحة ، والتزلج على الماء ، والسفر . . فإن للكتاب أيضاً هواياته في الإبحار في المجهول ، والسفر حول العالم . ومنع الكتاب من السفر كمنع الإنسان من السفر ، وهو عدوان صارخ على أبسط مبادئ الحرية ، ووقوف في وجه غريزة طبيعية من غرائز الأحياء .

إن منع كتاب من ممارسة حقه الطبيعي في الانتقال ، يشابه إلى حد بعيد منع الرياح والأمواج من الحركة ، والخيول من الركض ، والعصافير من الطيران ، والأسماك من الهجرة ، والكواكب من السير في مداراتها .

الكتاب العربي مصاب بشلل الأطفال ، ومتجمد في مكانه كسيارة سحبت منها بطاريتها ، فهو يولد في مكانه ويموت في مكانه .

قبل أربعين أو خمسين عاماً ، كان الكتاب قديساً يعلّم الحكمة وينشر المعرفة ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وكانت الحدود العربية تستقبله بالورد والموسيقى ، وتفرش تحت أقدامه السجّاد الأحمر .

أما في هذا العصر الذي يحترف الجهل والجهالة ، فقد أصبح

الكتـاب العـربي قـاطع طريق ، تعلق صـوره على جـدران المدينة ويطلب رجال الأمن رأسه . وإذا مرّ بطريق المصادفة على الحدود العربية ، فإن الكلاب البوليسية هي التي تتولى تفتيش جيوبه وحقائبه ، وشمشمة ملابسه ، واحتجازه في (الكرنتينا) حتى لا ينقل جراثيمه الفكرية إلى الناس .

وبعد أن كان الكتاب العربي في الثلاثينات والأربعينات ، يتمتع بكل الامتيازات والحصانات التي يتمتع بها الملوك ، والدبلوماسيون ، والسفـراء ، والقناصل ، فـإنه في القـرن الجـديد سـقط كـمـا في السبعينات والثمانينات والتسعينات تحت الأرجل ، فهو اليوم مواطن غير شرعي ، سُحبَ منه جواز سفره وأسقطت عنه حقوقه المدنية ، ولم يعد يجد كفيلاً يكفله أو محامياً يدافع عنه .

إن مأزق الكتاب العربي هو جزء من المأزق العام ، فهو المؤشر السياسي ، وهو المؤشر القومي ، وهو المؤشر الوحدوي ، وهو المؤشر الثوري والنضالي ، وحين تكون الديمقراطية غائبة ، والقمع سيد الأحكام ، فلابد أن يكون الكتاب العربي صورة طبق الأصل لمحيطه وبيئته وأن تظهر على وجهه كدمات العصر .

وكـمـا الإنسان العربي يمر بأزمة تنفس واختناق فإن الكتاب العربي يشكو أيضاً من العوارض ذاتها .

لذلك يستحيل على الكتاب أن يعيش في ظروف غير إنسانية ، ويستحيل عليه أن يستمر في البقاء إذا لم يحصل على الحد الأدنى من الهواء والماء وبروتينات الحرية .

ليس أمام الكتاب سوى خيارين لا ثالث لهما :

فإما أن ينخرط في صفوف المرتزقة والانكشاريين ، ويحترف المجاملة والنفاق ، والضرب بسيف السلطان ، وعندئذ سيكون قطعة غيار في ماكينة النظام الثقافي ، وإما أن يعزف سمفونيته الخاصة خارج الجوقة الرسمية ، وعندئذ سيوضع في قائمة المنبوذين والملاحقين ، والخارجين على القانون .

بين الكتاب العربي وبين السلطة الثقافية ما صنع الحداد .

إنها العلاقة بين المطرقة وبين السندان . .

أو بين القط والفأر . .

أو بين المبضع واللحم . .

ولا أجد تفسيراً لهذه العلاقة السيئة سوى أنها بين سلطتين : لكل منهما وسائلها ، وأدواتها ، وجيوشها ، وأسلحتها . .

فحين تلجأ السلطة الثقافية إلى وسائلها الزجرية المرادفة من منع ، وقمع ، ورقابة ، ومصادرة ، لا يملك الكتاب من وسائل

الدفاع عن النفس سوى العمل تحت الأرض ، والتسلل من ثقوب الأبواب وارتداء طاقية الإخفاء للوصول إلى وجدان الناس .

إن السلطة الثقافية على رغم تظاهرها بحب الكتاب فهي تكرهه ، وعلى رغم حفلات التكريم والمعارض التي تقيمها على شرفه فهي تنتظره على باب الدخول لتوسعه ضرباً وتتركه مضرجاً بدمه . . .

صحيح أن معارض الكتب ، التي تقام هنا وهناك في العواصم العربية ، توحي بأن الكتاب لا يزال بخير ، وأن الدول المضيفة لا تزال تستقبله بالترحاب ، وتفتح له صدر البيت .

هذه هي الصورة الظاهرية ، أما الصورة الداخلية فمختلفة تماماً ، فالكتب المعروضة في أجنحة الناشرين لا تتجاوز عشرة في المئة من مجموع الكتب التي تصدرها دور النشر العربية ، أما التسعون بالمئة فهي معتقلة في مخازن الرقابة .

وإذا استعرضنا نوعية الكتب التي رضي عنها الرقيب وأطلق سراحها ، وجدنا أنها الكتب التي تنتمي إلى الماضي أكثر مما تنتمي إلى الحاضر ، وتكتفي بتقديم المعلومات من دون طرح الأسئلة ، ككتب التراث ، والمعاجم ، والموسوعات ، والخرائط ، والفلك . . . وغير ذلك من الكتب التي يعاد طبعها منذ مئات السنين من دون أن يعترض عليها أحد .

هذه الكتب وحدها هي الكتب التي لم يناقش أحد شرعيتها منذ القرن العاشر حتى اليوم . . . لأنها كتب قالت ما عندها ولم يعد لديها شيء آخر تقوله . .

فالمعلقات العشر تمر بسلام بين أصابع الرقيب لأنه لا يشعر بحساسية من شعر الفرزدق ، أو النابغة الذبياني أو عنترة . أما دواوين الشعر الحديث فلابد من دخولها إلى غرفة الطوارئ وفحصها على أشعة الليزر . .

والغريب في أمر هذه المعارض أنها خاضعة لمزاجية الرقيب ، وإحساسه الجمالي ، وموقفه الحضاري مما يقرأ . . فرقيب (يسلطن) على ديوان شاعر فيجيزه ، ورقيب تتحرك عقده السلفية أمام ديوان شاعر آخر فيحكم عليه بالموت شنقاً .

ومما يدعو إلى الدهشة أيضاً أن كتاباً سمح بتداوله في أعوام سابقة في معرض ما ، حظر تداوله في المعرض ذاته هذا العام . .

ولا أدرى إذا كان الرقيب هو الذي يتغير بين عام وعام أم أن أفكار المسؤولين عن الثقافة هي التي تتغير بين يوم ويوم . .

كل هذه المفارقات تجعل الكتاب قلقاً مذعوراً ، وخاضعاً للأحكام العرفية ولنزوات بوليسية لا علاقة لها بالثقافة .

فديمقراطية الثقافة التي نفتقدها ، تجعل كل كتاب متهماً حتى

تثبت براءته ، في حين أن الديمقراطية الغربية تعتبر كل كتاب بريئاً حتى تثبت إدانته .

إن الكتاب هو وجهة نظر ، ومن تعدد وجهات النظر تكون الثقافة ، ولا خير في ثقافة تكون ذات رأي واحد ، أو اجتهاد واحد ، أو بُعد واحد كما يقول هربرت ماركوز .

ثم إن الكتاب هو موقف من الحرية بشكل عام . فإذا كانت الدولة لا تؤمن بمبدأ الحوار والمجادلة فخير لها أن لا تقيم معارض كتب ، لأن موقفها من الكتاب سيكون موقفاً استعراضياً ومسرحياً . . .

إن الدولة ، أية دولة ، لا يمكنها أن تكون صديقة الكتاب وعدوته في وقت واحد ، والنظام الذي يخاف خشخشة الورق ولديه حساسية من رائحة الحبر هو نظام لا جذور له في الأرض .

وأنا أعتقد أن النظام الثقافي الواثق من نفسه ، هو الذي يحترم الكتاب ويتخذ منه صديقاً ، ولا أعتقد أن كتاباً عربياً مهماً كان حاداً وعصبي المزاج ، يفكر أن يزعزع دعائم المجتمع أو يتآمر على الأمن القومي ، فالكتاب أداة تغيير وتعمير وليس أداة تخريب .

إن الوطن يكبر كلما ازداد عدد كتبه وعدد كتّابه ، وما أشقى الوطن الذي لا يجد ورقة يكتب عليها أو دواة حبر يسافر في موجها الأزرق .

الكتابة في الزمن المريض

الكتابة في الزمن المريض

لا يختلف اثنان على أن هذا الزمن العربي مريض . . . مريض في جسده ، ومريض في نفسه ، ومريض في أخلاقه ، ومريض في مثله القومية العليا . . .

وربما كان مرض الأمة العربية الأخير ، هو أخطر أمراضها وأشدها فتكاً ، لأنه أصاب جهاز المناعة فيها ، تماماً كما يفعل مرض (الإيدز) في ضحاياه .

فالمناعة القومية التي كانت تتمتع بها الأمة العربية في الخمسينات ، والقوة الروحية التي ضخَّها عبدالناصر في الجسد العربي ، بدأت مع الأسف تتلاشى تدريجياً ، وبدأ الجسد العربي يشحب ، ويذبل ، وبدأت أعراض الشيخوخة القومية تحفر قسمات وجهه .

وإلا فمن كان يصدق أن القامة التي كانت تتوهج عافية وكبرياء . . تتقوس بهذا الشكل المفجع ، وأن المائة وخمسين مليون عربي ، الذين كان جمال عبدالناصر ، يفجر أحلامهم ، وطموحاتهم ، ويشعل نيران البطولة فيهم . . قد تحولوا إلى يتامى .

مَنْعُ التجول... على الوَرَق

مَنْعُ التجول... على الورَق

الإنسان في الأصل ، كائن يقرأ . . ويكتبُ . . ويستعمل فَمه وأصابعه . . إلا في بلادنا ، فهو كائن موضوع في قَفص . . ولا يسمح له باستعمال حقه الشرعي في الحوار مع الورق الأبيض .

وَرَق الكتابة . . بضاعةٌ اختفت من الأسواق منذ زمن بعيد ، وأصبح الكاتب العربي مضطراً إلى الكتابة على الحيطان . . أو على زجاج الشبابيك . . أو على ملابسه . .

كلُّ أنواع الورق اختفتْ من المكتبات . . . ولم يبقَ سوى الورق الذي يكتب عليه المُخبرون السريّون تقاريرَهم . .

هذا وطن التقارير . . . لا وطن العصافير . .

الكتابةُ في الأصل ، فعلٌ مقدّس . .

والقراءةُ فعلٌ مقدَّس . .

ولقد كرَّم الله القراءة والكتابة ، كما لم يكرِّمهما دينٌ آخر . .

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . .﴾ صدق الله العظيم

وإذا كان اللّه عزّ وجل ، يسمّي المؤمنين «أهل الكتاب» ، فلماذا يُعاملُ الكاتب العربي على الحدود العربية - العربية ، معاملة اللصوص ، والمشبوهينَ ، وتجار المخدرات؟ . .

ولماذا يضربنا حكّامنا على أصابعنا . . إذا ضبطونا متلبسين بجريمة قراءة كتاب . . أو كتابة قصيدة . . أو ارتكاب مخالفة ثقافية؟

إن النظام الذي يرتعش خوفاً من قصيدة شاعر ، أو من رواية ، أو من مسرحية ، يؤكد أنه نظام هشّ كخيوط العنكبوت ، وأنه لا يملك الثقة بنفسه .

والحقيقة أنني لا أفهم كيف يجنِّد نظام من الأنظمة ، كلَّ موارده البشرية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية والمخابراتية لتسجيل وقائع أمسية شعرية . . وَزرْعِ أجهزة التنصت تحت طاولة الكاتب ، أو تحت سرير الروائيّ . . أو في حمَّام رجل الفكر!!

إن آخر ما تفتَّق عنه الذهنُ السلطويُّ العربي ، هو «إعلان حالة منع التجوّل على الورق» . .

وإذا كنا نفهم أنه في حالات الحرب ، أو حالات الاستنفار والتعبئة العسكرية ، تلجأ السلطةُ ، دفاعاً عن أمنها القومي ، إلى إقفال الشوارع ، ومنع المسيرات الشعبية ، والتجمّعات في الأمكنة

العامة ، وتحظر التجوّل على المواطنين من غروب الشمس إلى مطلع الفجر . .

أمــا عندنا . . فليس هنالك حـــربٌ . . وليس هنالك من يحاربون . . ولو أن السلطات الحاكمة كانت في حالة حرب ، أو في حالة استنفار قومي للدفاع عن حدود الوطن والأمة العربية ، لوجدنا لها العذر فيما تفعله . . ولكن هذه السلطات ، لم ترفع بندقية . . ولم تمتشق سيفاً . . ولم تعلن الحرب على عصفور . . أو على ذبابة . . منذ ربع قرن . . الحرب الوحيدة التي أعلنتها كانت على مواطنيها . .

إن «منع التجوّل على الورق» . . ابتكارٌ جديد لم نعرف له مثيلاً إلا في القرون الوسطى ، وعصور محاكم التفتيش . .

فحين تقُوم سلطةٌ ما ، على حرمان الكاتب من الحوار مع أقلامه ودفاتره ، وتعتبر فعْلَ الكتابة جريمةً من الجرائم الموصوفة التي توصل إلى السجن ، أو إلى المشنقة ، ، أو إلى التجريد من الحقوق المدنية ، فهذا يعني أن هذه السلطة دخلت مرحلة الجنون . . أو الانهيار العصبيّ . .

إن العدوان على الكلمة ، صار في بلادنا «استراتيجية» طويلة الأمد ، ومخططاً حكومياً كبنود الموازنة ، ومشاريع السنوات الخمس . . .

والحرب على الثقافة ، صارت من «الحروب الكلاسيكية» التي يسقط فيها كل يوم عشرات الكتّاب ، والشعراء ، والمفكرين . . . قد يتظاهر النظام بأنه مثقف ، وديمقراطي ، وليبرالي ، وتقدّمي . . إلى آخر هذه اللافتات الديماغوجية التي نحفظها عن ظهر قلب ، ولكنك إذا حككتَ بظفرك جلْدَ هذا النظام ، فاحت رائحة الرجعية ، والدكتاتورية ، والقمع ، وخرج لك خمسون رجل بوليس ليلقوا القبض عليك . . بتهمة التجوّل على ورقة الكتابة . . .

لقد أخفق الفكر السلطوي في فرض نفسه على الجماهير في أي مكان في العالم . . .

كما سقط كُلُّ الكتاب الذين خرجوا من بطن السلطة أو من مصرانها الأعور . . .

فها هو الاتحاد السوفييتي ، على يد جورباتشوف ، يعيد الاعتبار إلى كتّابه الأحرار ، الذين كان النظام الستاليني ينعتهم بالمنشقين ، من أمثال ناباكوف ، وزخاروف ، بعد أن اكتشف أن سياط الأيديولوجية لا تنتج أدباً كبيراً . . ولا كُتّاباً كباراً كتولستوي ، وغوركي ، وتشيكوف ، وأن الكاتب الذي يعيش في ظل الخوف ، لا يمكن أن يبدع فناً جميلاً . . (وها هي الصين الشعبية ، تخرج من قمم ثورتها الثقافية) وتحرر الكتّاب من الحذاء الضيق الذي حاول ماوتسي تونغ أن يضَعه في رؤوس المبدعين الصينيين .

إن ما يحدث في الاتحاد السوفييتي، والصين الشعبية، من تطورات، تثبت أن الإنسان هو ابن الحرية... وأن تجربة الأدب السلطوي أو الحكومي أو الموجه، سوف تسقط مهما طال عليها الزمن....

إننا نسمع عن وحدات اقتصادية عربية، تقوم هنا... وهناك... على الأرض العربية.. وهذه أخبار تسعدنا بالطبع..

ولكننا لا نسمع عن وحدات ثقافية، تتيح للفكر العربي أن يسافر بين بلد عربي وبلد عربي.. دون أن يضرب بالهراوات... ودون أن يضطر لخلع جواربه.. وحذائه.. في غرف التفتيش فكيف يمكننا أن نبحث في توحيد الدينار.. والجنيه، والريال، والدرهم، إذا كان الكلام العربي ممنوعاً من الكلام؟

* * *

الثقافة... فعل تغيير وتأسيس

الثقافة... فعل تغيير وتأسيس

إن دخول المرأة إلى أي ميدان، سواء كان ميداناً ثقافياً أو علمياً، أو سياسياً، أو وزارياً، أو إدارياً.. يكسر الاحتكار التاريخي القديم، ويؤدي إلى إعادة التوازن إلى مجتمعنا العربي الذي لم يكن يعرف التوازن.. إن التحول حاصل.. فالمرأة أساس التحولات الجذرية في كل شيء... كما هي أساس انبثاق الحياة...

ولابد للمرأة المثقفة أن تربط مصيرها بالمصير الثقافي.. والثقافة بحد ذاتها هي توريط والتزام، والمثقف لابد أن يكون مزروعاً في قلب مجتمعه، وفي قضايا عصره، وقضايا العالم كله..

وهذا هو المفهوم الذي تأخذه الثقافة اليوم.. وأعتقد أن كثيرات لهن نفس الطموحات.. في توظيف ثقافتهن لتأسيس الوطن تأسيساً مستقبلياً.. بمعنى آخر: إن مطلب الثقافة الأول هو مطلب التغيير والتجاوز.. وعلى المرأة المثقفة في بلادنا - إذا أرادت أن تصنع ثورتها - أن لا تكتفي بإعلانها على الورق، وإنما عليها أن تدخل معركة التغيير والتحدي بكل أبعادها ومخاطرها. فأنا أؤمن بثقافة الفعل لا بثقافة الهروب.. وبأدب المجابهة لا بأدب الصالونات!

سأعود إلى بيتي الكويت...

ومع كل الإحباطات والآفاق الرمادية فلسوف أستمر في حمل صخرة المقاومة والتحدي حتى أصل إلى قمة الجبل .

أما عن مدى تجاوب المواطن البسيط مع المأساة فأقول أن أيّ إنسان في العالم هو بطبيعته ضد الظلم ، ولكن الأنظمة الدكتاتورية والفردية في الوطن العربي تستمر في ممارسة الغوغائية ، وفي طرح الشعارات الكاذبة ، وإثارة غرائز الجماهير .

إن ماكينة الإعلام العراقية مع الأسف تحاول أن تقلب الحق إلى باطل ، والأبيض إلى أسود ، لذلك أطلب من الجماهير العربية أن لا تقع بفخ الأكاذيب ولا تمشي في ركاب الشيطان .

إن الوظيفة الأساسية للكلمة هي المواجهة والتصدي وتأسيس عالم جديد ، ولا أهمية لكلمة لا تحاول أن تغير العالم وأن تفجره .

هذا كان إيماني دائماً وحتى قبل الغزو العراقي للكويت ، كنت أحاول بشعري أن أسبح عكس التيار وأن لا أخضع للأشياء المألوفة ولا القناعات المألوفة .

وإذا كان شعري الآن قد تحوّل إلى خنجر في مواجهة الغازي فهذا موقف طبيعي لأن الكلمات لا تقبل الظلم ولا تقبل الأساليب النازية . . ولا تقبل أنصاف الحلول .

أمّا دوري الأساسي فهو أن أكون مع أهلي على الخطوط

الأمامية للمواجهة وأن يكون لصوتي دوراً في المقاومة والصمود . فالإذاعات الخليجية وإذاعة الكويت تنقل كتاباتي شعراً ونثراً ولي برنامج يومي أعدّه لإذاعة الكويت اسمه صباح الخير يا وطني . . يا ديرة الخير يا كويت أشد فيه أزر المواطن وأحثه على الصمود والتشبث بالأرض . ومن خلال تقرير يومي للصحف الإنكليزية أبعثه لإذاعة الكويت ، وبرنامج أسبوعي سياسي (أضواء على الأحداث) .

فالكلمة لها دور لا يقل عن دور الرصاصة ، ودور الكلمات معروف عبر التاريخ ، حيث كانت الكلمة دائماً تقف في الصفوف الأولى على جبهة القتال ، بل كانت تهيئ لولادة الثورات وتتنبأ بها .

خلال السلام تقوم الكلمة بصناعة الحياة ، وخلال الحرب تقوم الكلمة بحراسة حدود الحرية ومؤسساتها .

والإنسان العربي ينفعل بالقصائد الجميلة ، كما ينفعل أمام الأحداث التاريخية الكبرى ، وفي تاريخ الأدب لم تنفصل أبداً قصيدة الحب عن قصيدة الحرب .

ففي تاريخ الأدب العربي كان الشاعر سلطة لا تقل عن بقية السلطات ، لذلك كان الملوك والخلفاء يطلبون مرضاة الشاعر ويسعون لكسب ولائه ، وكلنا يعرف أن القبيلة العربية كانت تعتبر

ولادة شاعر فيها قوةً لها وذخيرة معنوية وروحية ، لا تقل عن أهمية السيوف والدروع والخيول .

ولا نبالغ إذا قلنا أن الشاعر العربي كان بمثابة وزارة دفاع تحمي القبيلة ، كما كان وزارة إعلام ووزارة خارجية .

الشعراء الكبار كانوا دائماً يهزون الحكومات وإذا لم يهزوا الحكومات لأنهم يهزون ضمائر الجماهير ويحرضونها على الثورة . وعلى رأس قائمة الشعراء الذين كانوا يهزون الممالك والعروش من سيف الدولة إلى كافور ، يأتي عملاق الشعر أبو الطيب المتنبي الذي كان مرهوب الجانب من جميع السلطات ، بل كان سلطة فوق السلطة .

أما المفكر العربي الكبير الحلاج الذي شنق في بغداد ومُثّل فيه لأنه كان محامي الحرية .

أما في العالم فقد قاتل الشاعر الإسباني العظيم جيرسيا لوركا قوات النازية والدكتاتورية حتى سقط برصاص الظلم .

وتناول سقراط السم لأنه رفض أن يتخلى عن أفكاره أمام السلطة .

وكذلك فإن صوت نيرودا كان صوت الحرية العظيم في أميركا اللاتينية . وكان لصوت الشاعر الثوري ناظم حكمت دوراً

في معركة التحرير من الظلم والتخلف .

سأعود إلى بيتي الكويت طالما أنني أقاتل في سبيل العودة ، وطالما أقاوم الظلم والقهر والاغتصاب . الاستعمار سريع العطب ، والشعوب في نهاية المطاف هي التي ستنتصر .

ومهما يكن فإن معركتي في سبيل تحرير البيت الكويتي مستمرة وإذا لم أعد أنا فسوف يعود أولادي .

* * *

صباح الخير... أيتها الديمقراطية

صباح الخير... أيتها الديمقراطية

المعركة الانتخابية الجميلة ، والعادلة ، والأخلاقية التي جرت على أرض الكويت في الأسابيع الأخيرة ، أكدت للدنيا كلها أن الديمقراطية هي جزء أساسي من تركيب الدم الكويتي ، وأن الله خلق الكويتيين أحراراً منذ ولدتهم أمهاتهم . .

فهذا الحوار الحضاري المدهش الذي جرى في المقرات الانتخابية ، وسُخرت له التكنولوجيا والصوت والصورة والتقنية الإعلامية المتطورة لإيصال صوت المرشح إلى الناخبين ، وشهده جيش كبير من رجال الإعلام العرب والأجانب .

هذا الحوار الحضاري الذي جرى في إطار نموذجي من حرية التعبير واحترام الرأي الآخر . . يذكرني بأجواء الانتخابات في الدول المتقدمة . . حيث يتوجه الناخبون إلى صناديق الاقتراع وليس معهم سوى قناعتهم وحريتهم . .

لم يكن في الانتخابات الكويتية قمع من أي نوع كان . . ولا إكراه من أي نوع كان . . ولا كانت هناك مسدسات تضع الناخبين

في سيارات . . وتجبرهم على التصويت بكلمة «نعم» للزعيم الأوحد . . لا «زعيم أوحد» في الكويت . . والحمد لله .

«فالزعيم الأوحد» في الكويت . . . هو الشعب الكويتي وحده . . والحرية هي تراثُنا الكبير الذي نتوارثه أباً عن جد . .

الحكومة الكويتية لم تراهن في الانتخابات على أي حصان . . . تركت كل الخيول تركض كما تشاء . . . وتصهل كما تشاء . . . وتمارس خياراتها كما تشاء . .

وكذلك فعلت وزارة الداخلية ، التي تصرّفت على أعلى مستويات التجرد ، والسمو ، والنظافة . . مع أن تاريخ وزارات الداخلية في بلادنا العربية ، وفي بلاد العالم الثالث ، لم يكن أبداً تاريخاً عطراً ، ولا ناصعاً . .

إن يوم الخامس من أكتوبر هو نقطة مضيئة في التاريخ الكويتي . . وهو شهادة ناصعة ، على أصالتنا ، وتجذّرنا في تراب الديمقراطية . .

ورغم الكارثة التي مررنا بها ، والجراحات التي تركها الغزو العراقي على أجسادنا وأرواحنا ، فقد أثبتت التجربة الانتخابية الناجحة التي خضناها ، على أننا لا نزال أقوياء ، وأصحاء ، وأننا لم نفقد إيماننا بالله . . ولا بالأرض . . ولا بحريتنا . .

لقد نجحنا في امتحان الديمقراطية بدرجة الامتياز ، ولم يعد أحد من أعوان النظام العراقي وأذنابه ، يستطيع أن يعيدنا بالبطش ، والقسوة ومخالفة شريعة حقوق الإنسان . .

إن الأنظمة البوليسية القائمة على البطش ، والقتل ، والتصفيات ، وامتصاص دماء شعوبها ، لا يمكنها بالطبع أن تُعجب بالديمقراطية الكويتية ، أو ترحّب بها . . فالأعمى يغار من الضوء . . والسجين يخاف من أي نسمة حرية . . .

كل ما قالته الكويت عن الديمقراطية . . دخل اليوم مرحلة التطبيق ، وكل ما وعد به أمير البلاد تحقق مع فجر الخامس من أكتوبر .

فها هو مجلس الأمة يجتمع من جديد ليعبّر عن إرادتنا وقضايانا وأمانينا . وها هو الدستور يحرس حقوقنا ومستقبلنا وحريتنا وكرامتنا . .

وها هو الوطن يبرأ من جراحاته العميقة ، ويقف على أقدامه سليماً ، ونشيطاً ، ومعافى . وها هو المواطن الكويتي يسترجع ثقته بنفسه ، ويستعد ليكون جزءاً من العصر والمتغيرات في النظام العالمي الجديد . .

يوم الخامس من أكتوبر ، كان جائزتنا الكبرى ، فالذين انتظروا

أن تكون الانتخابات الكويتية . . معجزة يذبح فيها المواطنون بعضهم بعضاً ، خاب ظنهم ، وتساقطت آمالهم ، وأثبت الشعب الكويتي أنه يشكل نسيجاً عضوياً ملتحماً لا يمكن اختراقه . .

لقد تصرف كل مواطن كويتي بحس حضاري يحسد عليه . . ودخل المعركة بروح رياضية . .

أليست هذه بحد ذاتها معجزة ، في عالم عربي لم يعد يتذكر كيف تحدث المعجزات؟ . .

فأهلاً بمجلس الأمة الجديد . .

وأهلاً بالقادمين الجدد ، الذين نرى في عيونهم آمالنا وأحلامنا ، ومستقبلنا الجميل . .

والآن . . وقد انتهى موسم الامتحانات . .

وأطفئت الأنوار وأزيلت الخيام . . ونجح من نجح . . ورسب من رسب . .

أود تذكير الفائزين بأن العمل النيابي ليس استعراضاً . . ووجاهة . . ووظيفة روتينية . . ولكنه خلق ، وفكر ، وابتكار .

على الناجحين في الانتخابات ، أن يُدخلوا الكويت إلى عصر الحداثة ، وأن يجعلوها طليعة ثقافية ، وعلمية ، واقتصادية ، مبتعدين عن الفكر الاتكالي . . والرومانسي . .

مهمتهم هي أن يستأصلوا بقايا العصبية ، والطائفية ، والقبلية من حياتنا . .

مهمتهم أن يكونوا حراساً على سيادة الكويت . . وحريتها . . ومستقبلها . . لا أن يكونوا مجرد صيادي أخطاء . .

* * *

لا تخافوا على الديمقراطية

إن سبعة أشهر من القهر ، والقتل ، والتخريب ، والاغتصاب ، والإبادة الجماعية ، كانت كافية لتحطيم النفس الكويتية ، وإحداث مئات العاهات والتشويهات فيها .

لذلك فإن محاكمة الكويت (بالنظارات) وإصدار الأحكام (بالنظارات) أيضاً ، دون دراسة الجانب السيكولوجي للقضية ، ودون الأخذ بالأسباب المخففة ، هي محاكمة باطلة .

إن العاصفة الاستثنائية التي ضربت الشعب الكويتي ، أفرزت بعض ردود الفعل الاستثنائية ، ومثل هذه الانفعالات العشوائية والشخصية لا يمكن لأحد أن يلجمها في زمن الفوضى .

والثورة الفرنسية ، التي هي أم الثورات ورائعتها ، لم تستطع أن تفعل شيئاً لحاملي السكاكين ، والبلطات ، الذين حولوا شوارع باريس إلى بحر من الدماء .

الكويت بحاجة إلى فترة نقاهة تسترد بها أنفاسها ، بعد سبعة أشهر في سراديب النظام العراقي .

إن بحرنا لا يزال ملوثاً ، وشمسنا لا تزال تلبس العباءة السوداء .

فاصبروا أيها السادة علينا قليلاً ، حتى نطرد الربو من رئتينا والدموع من عيون أطفالنا . . والعفاريت التي لا تزال ترقص أمام شبابيك بيوتنا .

لا تطلبوا منا أن نعمر لكم (جمهورية أفلاطون) في خمس دقائق ، ولا أن نؤسس (المدينة الفاضلة) التي تجري من تحتها أنهار العدل ، والحب ، والحرية .

انتظرونا أيها السادة حتى نخرج من غرفة العناية الفائقة ، وبعدها ، اطلبوا منا أن نحمل لكم حليب العصافير ، وفاكهة الجنة ، وموائد المن والسلوى .

لا تخافوا على الحياة البرلمانية في الكويت ، فنحن أول من وضع حجر الأساس للحياة البرلمانية في منطقة الخليج .

لا تخافوا على شجرة الديمقراطية من اليباس ، لأننا ديمقراطيون بفطرتنا وطبيعتنا ، وعراقة تراثنا .

ولا تخافوا على العدالة الاجتماعية لدينا ، لأن الكويت سوف تبقى - برغم من عضوا يدها ، وتنكروا لعطائها - بيتاً مفتوحاً لكل من يقصدها من الإخوة العرب ، بحثاً عن الخبز والحرية والسلام .

ولا تخافوا على عروبة الكويت ، لأن الظفر لا يخرج من اللحم ، والدم لا يمكن أن يتحول إلى ماء .

أيها السادة : خذونا بحلمكم ، واصبروا علينا قليلاً . فإن الله مع الصابرين .

صباح الخير.. أيّتها الحرية

صباح الخير.. أيتها الحرية

بعد مئتين وعشرة أيام ، وثماني ساعات ، وعشرين دقيقة ، وخمس ثوان ، عددتُها على أصابع يدي ، كما يعد المساجين فتافيتَ الخبز ، وأعقابَ السجائر ، وخيطان بطانياتهم . .

دخلت عليَّ رائحة الكويت من نافذة منفاي في لندن ، فاخضرَّ لونُ دمي . . وتسلّق العشب على جدران ذاكرتي . .

ما أطول زمنَ المحبوسين في زجاجة الأنظمة الفرديّة . .

زمنٌ من الخَشَب . .

لا يتقدّم . . ولا يتأخّر . . ولا يشيخ . .

بعد مئتين وعشرة أيام . .

أكلتُ فيها نصفَ أظافري . . ونصفَ دفاتري . .

استيقظت صباحاً لأجد مئات الهدايا مكوّمةً فوق سريري

القمر الكويتي في كيس . .

أبراج الكويت في كيس . .

دَشْدَاشَتي الصيفية في كيس . .

ألعاب أولادي ، ودفاترهم المدرسية في كيس . .

صورة «مبارك الكبير» في كيس . .

والبحر ، والكورنيش ، والسالمية ، والجابرية ، ومشرف ، ودسمان ، والشويخ ، والفحيحيل ، والأحمدي . . ووربة . . وبوبيان . . وفيلكا . .

كلّها كانت ملفوفة بأوراق السيلوفان والقصب تنظر إلى جانب سريري . .

رائحة الكويت تهاجمني من كل الجهات . . .

رائحة الشاي والقهوة في الديوانيات تخترقني من كل مكان . . .

تبللّني . . تثقبني . . تحفرني . .

كنت أتصور قبل احتلال بلادي ، أن رائحة الحرية رائحة عاطفية ، وشعرية ، وكمالية . . وأن الطغاة يمكنهم أن يمنعوا استيرادها بمرسوم صادر عن مجلس قيادة الثورة ، أسوة بكل مستحضرات الحرية الأخرى من أقلام وأوراق ودفاتر . .

ولكنني اكتشفت أن رائحة الحرية هي أقوى الروائح ، وأعنفها ، وأكثرها التصاقاً بأجسادنا وأرواحنا . .

بعد مئتين وعشرة أيام على اختطافها . .

عادت إلينا الكويت وجهاً مغسولاً بالدمع والحزن والكبرياء . .

عادت منهكةً ، محطمةً ، ممزّقةَ الثياب ، دامية الشفتين . . لن ندخل في تفاصيل خطفها . . ولن نسجّل إفادتها ، ولن نجري معها حواراً صحفياً . . لأنها تعاني من صدمة عصبية قويّة ، ولأن حالتها النفسية لا تسمح لها بالكلام مع أحد . .

ثم لن نسألها عن اسم المعتدي ، وعنوانه ، وأوصافه . . فهو معروف جداً . . ومشهور جداً . . ويظهر كل ليلة على قناة الـ C.N.N. .

بعد مئتين وعشرة أيام . .

عادت إلينا الكويت ، حافيةً ، جائعةً ، مصابةً بفقر الدم ، بعد أن جرّدها الخاطفون من حقيبة يدها ، وخاتم زواجها ، وآخر خمسة دنانير كانت في جيبها . .

بعد مئتين وعشرة أيام . .

هربت الكويت من زوجها الفظّ . . المتسلّط . . والعدواني . الذي تزوّجها رغم أنفها بقوة السلاح . . وصواريخ سكود . . والكيميائي المزدوج . .

ورغم أنها شكته إلى شرطة الإنتربول أكثر من مرة . . إلا أنه لم يتوقف عن ضربها . . وتجويعها . . وطردها مع أولادها من البيت الزوجي . .

العالم كله - بما في ذلك هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومحكمة العدل الدولية - كان إلى جانب الزوجة الرقيقة، الوديعة، المسالمة، ضد الزوج الذي لا يعرف من الهوايات سوى هواية جمع المسدسات . . .

بعد مئتين وعشرة أيام . . على عقد «الزواج المسلَّح»، رفضت الكويت أن تتخلى عن أصولها، وجذورها، وشجرة عائلتها، كما رفضت أن تدخل إلى بيت الطاعة في المحافظة التاسعة عشرة . .

ولأن العريس أصيب بطعنة في كبريائه . . فقد عمد إلى تفجير البيت الزوجي بالديناميت، حتى يغيظ أهل زوجته، ويثبت فحولته . . وأنه قادر على قصف رقبة أي امرأة تخالفه . .

جميع أسماك الخليج . . قدمت استقالتها من حزب البعث العراقي . . وانتسبت إلى «حزب الخضر» . .

لأنها لا تريد أن تموت اختناقاً . .

إذا كان النفط ثروة قومية يجب توزيعها على فقراء العرب

بالعدل والتساوي . . . كما يقول الرئيس العراقي ، فلماذا أمر بإشعال النار في أكثر من ٥٠٠ بئر نفط قبل انسحابه . .

هل هي الساديّة . .؟

أم الشيزوفرانيا . .؟

أم غريزة نيرونية . . لحرق السلالات . . وقتل الحياة والأحياء؟

بقدر ما كنت مبتهجةً بعودة الكويت إلى أصحابها . . كنت حزينة ومتضايقة لرؤية مئات الأسرى العراقيين على شاشة التلفزيون ، يتساقطون إعياءً ، وجوعاً ، وعطشاً ، ويتقاتلون على كسرة خبز ، وجرعة ماء . . .

إن مشاعري القومية تنزف دماً ، أمام المشاهد الموجعة للقلب والضمير . .

لماذا كسر الرئيس العراقي كبرياء الجندي العراقي؟ . . وكسر كبرياءنا أيضاً؟

الجندي العراقي لديه أعظم نهرين في الدنيا : دجلة والفرات ، فلماذا اضطره قائده إلى استجداء زجاجة كوكاكولا من خيام الغرباء؟ . .

وا عجبي!!! .

لا يزال الرئيس العراقي يستعمل قاموسه الجاهلي في الحرب ، ولايزال يستعير مفرداته من شعر عمرو بن كلثوم ، وأبي تمام ، عن المنازلة الكبرى ، وقتال الكافرين والمشركين ، وعن الأعداء الذين «نَضَجَتْ جلُودُهم قبل نُضْج التين والعنَب» .

في حين لا نرى على شاشة التلفزيون تيناً . . ولا عنباً . . ولا خالداً . . ولا معتصماً . .

وإنما نرى أولادنا العراقيين يرفعون قمصانهم البيضاء ، ويذهبون إلى المعسكر الآخر وهم في ذروة الحماسة إلى الخبز والماء والحرية . .

مرة أخرى أتساءل ، والدمعة في عيني :

لماذا أوصل الرئيس العراقي جنوده إلى هذا الخيار الرهيب . .

وإلى النقطة التي يصبح فيها السقوط في الأسر ، مطلباً نفسياً وجسدياً لا يُقاوم؟؟

لماذا . . .؟ لماذا . .؟ لماذا؟ . .

* * *

عرسٌ بلا عروس..

عرسٌ بلا عروس..

عرسٌ ديمقراطيٌّ تعيشه الكويت ، في الليل يحلو السهر على ضوء الندوات . . . ودفء المناقشات والحوارات . . الكويت شمسٌ نادرة في سماء الوطن العربي تنشر حرارة الحرية والديمقراطية في وطن عربي يعيش صقيع اللاديمقراطية . وتمنعها عن المرأة الكويتية . فالمرأة الكويتية معزولة عن العرس في وطنها خوفاً عليها من التقاط جرثومة الديمقراطية . . المرأة الكويتية مكتوب عليها أن تقيم في الحجر الصحي بأمر الأطباء من الذكور . . وكأن الوطن مزرعةٌ ، الذكور أسيادها ، والنساء عبيدها . هذا المنطق السلفي الذي مازال سائداً والذي يعتبر الرجل الرأس والمرأة القدمين . . كيف نفسره في عصر الاشتراكيات والانفتاح على العالم . . . فالإنسان لا يُبتز بسبب لونه أو جنسه ، أو معتقده ، ولا يوجد هناك مبرر لتقسيم الإنسان إلى رأس وأقدام ، فلا الرجل هو رأس المرأة ، ولا المرأة هي القدمين .

فإذا كان التقسيم مقصوداً به اعتبار الرجل مركز العقل والحكمة ، فليس كل الرجال عقلاء ولا حكماء . . . فإن سيدات

فالشركة المحدودة الأسهم . . . التي أسسها الرجال واعتبروها وطنهم الخصوصي بدأت تفلس اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً . . . ومن يدري ربما إذا اشتركت المرأة في معركة الحياة العامة ستخفف من نسبة الانحرافات والعنف والحروب والانتهاكات التي يمارسها الحكام الرجال ضد الإنسان . . .

* * *

افتتاحية غير رومانسية

افتتاحية غير رومانسية

اشتقت إلى الكويت في صورتها الجديدة ، وتسألونني باستغراب : وهل هناك صورتان للكويت . . واحدة قديمة . . وأخرى جديدة؟ . . .

طبعاً هناك صورتان . . وهناك فروق أساسية واضحة بين الصورتين . . .

وأنا مع الصورة الجديدة ، ولو كان فيها بعض الشحوب ، وبعض الغضون ، وبعض الشيب الذي أشعلته حوادث السنتين الأخيرتين . .

وجه الوطن كوجه الإنسان . . . تغيره ظروف الزمان ، وتقلبات الأيام . . وتترك عليه الأحزان بصماتها العميقة . .

وأنا اشتقت إلى الوجه الآخر للكويت . .

الوجه الذي يعاني ، ويتألم ، ويغضب ، ويعيش على حافة الخطر . .

الوجه الذي يفكر . . ويقلق . . ويتحفز . . ويضع يده كالحارس الليلي على زناد بندقيته .

الوجه الذي نضج على نار الأحزان وكبر في سنتين بما يعادل عشرة آلاف سنة ضوئية . .

الوجه الذي انتقل ، خلافاً لقوانين التطور ، من مرحلة الطفولة . . إلى مرحلة مواجهة الأعاصير والزوابع ، وأنا يعجبني هذا الوجه الكويتي المرهق ، الحساس بالتعابير أكثر مما يعجبني وجه الكويت المستريح ، المتورد ، المرفه ، والخالي من الانفعالات والتموجات كسطح بحيرة من الجليد .

إن الوطن ، أيَّ وطن ، يزداد وسامةً وجمالاً بقدر ما يعاني . . وبقدر ما يجابه . . وبقدر ما ينزف . .

ومرحلة شهر العسل في التاريخ الكويتي ، استمرت سنين عديدة . . وهي فترة طويلة جداً ، واستثنائية جداً في تاريخ شهور العسل . . .

ولقد جاءت حرب الخليج ، لتهزنا هزاً عنيفاً ، ولتعلن نهاية شهر العسل المصطنع ، ولتطلب من العرسان أن يتركوا فراشهم ، ويلتحقوا بأول مركز للتجنيد للدفاع عن الوطن . .

لم يعد في العالم مكان للفرح أو للبطر أو لشهور العسل . . وها هو لبنان الذي كان سيد العرسان ، وأمير المرفهين ، يتحول إلى مقبرة جماعية . .

إن الذكريات الكويتية الجميلة محفوظة في ألبوم العائلة . . وسوف يتفرج عليها أولادنا ، ويستغربون كم كانت الحياة في زماننا سهلة ، والمال متوفراً ، والزوجات صغيرات السن ومطيعات ، والثقافة معصية ، والقراءة والكتابة رجساً من عمل الشيطان . . . نعم . . سيتفرج أولادنا على صورنا ذات يوم ، فيتذكرون شكل الديناصورات التي رأوها في متحف التاريخ الطبيعي في لندن ، ويستغربون . .

* * *

الكويت مدينة البطولة

الكويت مدينة البطولة

ماذا أقول للكويت؟ وماذا أقول عنها؟

إنني مرتبكة إلى حدود الذهول .

وأنا لا أرتبك إلاّ أمام موقفين ، موقف الحب ، وموقف البطولة . .

هنا ينسى الكلام كلامه ، وتنسى اللغة لغتها . .

فكيف أدخل في حوار مع هذه المدينة؟

كيف يستطيع الشاعر أن يقف على هذه البقعة الخرافية من الأرض ، دون أن يشعر بانعدام الوزن؟

كيف أستطيع أن أواجه أمطار البطولة

وليس معي مظلة؟ . .

كيف أستطيع أن أواجه البروق التي تحرق وجهي وثيابي؟ . .

جئت إليك . . مثلما يذهب الحجاج إلى الأماكن المقدسة . .

جئت لأستنشق عبير القداسة . .

جئت لأتوضّأ بماء البطولة . .

جئت لأكمل ديني . .

إن قداسة الأمكنة ليست تعبيراً مجرّداً . .

فهي تستمد معانيها من ثورة الأرض ، وكفاح الإنسان ، ومعاناته من أجل الحق ، والخير ، والحرية .

فقداسة مكة هي جزء من معاناة الرسول محمد ﷺ ، في فجر الإسلام ، من أذى المشركين والكفرة ، وقداسة بيت لحم ، والناصرة ، والقدس ، هي جزء من معاناة السيّد المسيح على يد اليهود والرومان .

وكربلاء ، في العراق ، تستمد معانيها من الدماء الزكية التي سالت من جسد الحسين وصحبه من آل الرسول .

ومعارك مثل معارك بدر ، وحطّين ، والقادسية ، دخلت التاريخ ، لأنها كانت صراعاً بين قوى الظلام وقوى النور والحرية .

وها هي الكويت تأخذ مكانها في قائمة المدن التي دخلت التاريخ ، لأنها لعبت دوراً عظيماً في تغيير مجرى التاريخ .

ومثلما وقفت ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية ، كجدار من الفولاذ ، وقفت الكويت في وجه الزحف الصدامي لتقاتل بأظافرها ، وأسنانها ، وبسعف النخل ، وأغصان الشجر ، وقضبان

النوافذ ، وأعمدة الكهرباء . . ودرّاجات الأطفال . . وسكاكين المطابخ . .

لم يتخلّف أحدٌ عن بذل دمه . .

العصافير أعطت ريشها . .

والشجر أعطى أوراقه . .

والبحر تبرَّع بمعطفه الأزرق . .

والغروب تبرع بدمه البرتقالي . .

والنجوم أعطت ضوءها . .

والنساء قصصن ضفائرهنَّ . . وصنعن منها ضمادات لجراح المقاتلين . .

إنني أدخل الوطن ، وأنا ملتفة بعباءة من الكبرياء لم ألبس مثلها في حياتي .

أدخلها بخشوع ورهبة ، كمن يدخل إلى دير . . أو إلى معبد . . لأمارس طقوس الحب ، وطقوس الانتماء للتاريخ . .

فأنا ، كمواطنة عربية ، أشعر أنني مدينة للعرب بدين قومي لا أستطيع وفاءه ، بأي لغة من اللغات . . وما أفقر اللغات أمام بطولة الأبطال . .

هذه المدينة البطلة ، وأقولها بكل قوّة وإصرار ، حمت حاضري ومستقبلي ، ومستقبل أولادي . .

هذه المدينة الرائعة ، كانت الدرع الذي أنقذني من الضياع . .

وبعد . . فكل مديح لديرتي الكويت ، هو أصغر من قامتها . . وكل محاولة للثم يديها . . شكراً وعرفاناً . . تبقى محاولة خجولة ومتواضعة . .

ويوم يكتب التاريخ العربي مذكراته . . فسوف يخصّص الصفحة الأولى لهذه المدينة المقاومة . .

أتجوّل في الكويت . . وعيناي مبلّلتان بالدمع ، ودمي مشتعل بعطر البطولات . .

صحيح أن مياه البحر . . قد احترقت . .

وصحيح أن أجنحة الطيور البحرية . . قد احترقت . .

وصحيح أن ضفائر النخيل . . قد احترقت . .

ولكن مياه البحر تتجدد ، وضفائر النخيل كما ضفائر النساء تطول بسرعة . .

ويظل الوطن دائماً سيفنا . . ودرعنا . . وقصيدتنا الجميلة . .

* * *

تأملات...

له رمال الصحراء وغبار المدن والأرصدة المكدسة في بنوك أجنبية . . في عيون النساء ألمح قبور الأطفال . . وشواهد كتبت عليها بطولات زائفة . . . البحر يفتح صدرَه لكلماتنا . . وكلماتُنا تعيش في عصر آخر . .

لا وريث لصوتي في هذا البلد . . أعانق وحدتي وأمضي إلى قعر الهاوية . . لا صوت للنواخذة . اليأس قمر يتدلى في سمائنا . . والبحر ساكن ميت لا يولد منه اللؤلؤ ولا المرجان . . والأرض تحبل كل يوم وتنزف كل يوم . . وليس ثمة ولادة . . البحر في خاصرتي يتألم . . أيُ رب جديد سنعبد؟

ضاقت بنا المساحات . . وقربت المسافة . . وضاق جلدُنا علينا . . واستأسد جلادُنا .

للصبر أهداب طويلة . . وأقنعة تكبرُ وتضيق . .

أيتها الصحراء المضرجة بالجمر . . أيتها الأرض الحبلى بالنفط وبالفقر بالتخمة وبالجوع . يا أرضاً بلون الفجيعة هل من مخاض جديد . . هل من نبات جديد؟ هل من بعث جديد؟ رائحة الجيف تسد أنفي والتاريخ أغسله من الذاكرة . . هل من عاصفة تهب لتطرد الرمل عن شاطئ الذاكرة .

مطر . . مطر يغسل الخراب ، الإيمان والثبات يجعلان داخلي نظيفاً كمولود جديد . .

شعبي المأسور في حظيرة . . سرقته القراصنة . . والناس يأكل بعضهم بعضاً . الفقر رغيف ساخن تتقاسمه الشعوب . . والغنى مظلة للقادرين . . والعدل سماء أنسجها من شعاع الغد . .

يا وطني . . شربت حزنك حتى ارتويت . كيف علمتني الحب . . ووحدك أنت الحب؟ . .

لقد شربت وشربت وما ارتويت ، وحده حبُك منه ما ارتويت . .

ها هي سفينة غربتي ومنفاي تحملني إلى بلاد بعيدة . . وأمضي أحمل حقيبة الحزن وحقيبة الوطن . . وفي عينيّ يسكن شعبي المشتت على خريطة التاريخ . .

ها هي سفينة المنفى تبحر وأنا أحلم بالحب الساكن في الدوالي . . وفي رائحة العرق ورائحة البحر . . وفي رائحة حبيبي قبل هبوب الريح . . وفي ذراعيه عند هبوب العاصفة . .

لا أتذكر غير حبيبي أطرز له ثوباً في الذاكرة وأجلس وإياه على شواطي الحنين ، والموج وحده يموت ويبعث .

الذاكرة مغسولة بأمطار الوجع . . وللحب نكهة النار والجليد . . وللوطن رائحةُ الجنة . .

تساؤلات عاشقة

تساؤلات عاشقة

عصفورة مرهقة متعبة . . أنا . . تطاير ريشها عبر المحيط أبحث عن غصن شجرة خضراء . . أو صفراء أو عن قطرة ماء . .

ما الذي يشتهيه الطفل داخلي أكثر من يد حنونة تمسح دمعة حائرة عن وجنتيه المتوردتين بالقلق والحياء . .

ما الذي تشتهيه الصبية في أعماقي أكثر من أن تجدل لها شعرها الليلي المتناثر على قارات العالم . . وتزرع في أعماقه وردة بيضاء . .

ما الذي تتمناه العاشقة الطالعة على الدنيا أكثر من عاشق تهرب من عينيه إلى عينيه ، ومن يده اليمنى إلى يده اليسرى ، ومن قلبه إلى قلبه ، ومن عقله إلى عقله ، ومن حاضره إلى الذاكرة ، ومن الخاصرة إلى الخاصرة . .

ترى هل يتبلل الصغار بماء العشق؟؟

وهل تفتح لهم نوافذ الجنون فيقطفون الورد المعربش على بوابات القلب . .

هاربين من الوله الذي يستوطن ضفة العينين . .

في ليل المدن الملون بنفايات الحضارة

وفي الفجر الرمادي اليتيم . .

من دونك . . من أنا؟؟

عين ضيعت أهدابها . .

وقرنفلة تبحث عن رائحتها . .

وغابة احترقت أشجارها

وأنثى تبحث عن كتف رجل تتكيء عليه .

استحضرك في ذاكرتي مبللاً كالبنفسج . .

وأمارس طقوس عشقي الأبدي لك

فيتساقط ذهب الشمس من صوتك . .

ويعلو صوت البلابل . . ويتحول الفجر الأناني إلى لوحة ألوان ، ومعرض أزهار . .

وكأن العمر في بداياته الأولى . . ألملمه كي أعلن انتصاري على النهار . .

استحضرك لأنك الملح الذي يحفظ ذاكرتي من التعفن . . ويحفظ تاريخي من الاندثار . .

أنا من غيرك مجرد إشاعة . .

وأنا من غيرك كذبة كبيرة تبثها صحف الصباح . .

وأنا من غيرك لغة من غير حروف

وأنا من غيرك بحر تخلّى عن معطفه الأزرق . .

فشكراً لك لأنك أعطيت لليل عينيك ، وتركتني أتجول فيهما ، فمساحة عينيك غطّت ليل الغربة . .

شكراً . . فتراثك العاطفي المخزون تحت جلدي ، يشعل حطب الذاكرة فيدفئني ، وأنا أواجه صقيع المستشفى . . ويعطيني مفاتيح الأمان ، وأنا أواجه الأطباء . .

في هذه القارة المترامية الأطراف ، والمتعددة الأجناس والأديان ، والمعتقدات ، والألوان ، واللهجات دخل الإنسان فيها ماراثون تحطيم الرقم القياسي للسرعة ، واخترت أنا فيها مكاناً قصياً كل ما حولي مرسوم بالأخضر . . إلاّ أنني أشعر بالتصحر كأنني أعيش فوق بحر شديد الملوحة . .

فكيف أشجر صحراء نفسي وقد أكلني الملح؟؟

ملوحة الأسئلة . . وملوحة القلق . . وملوحة البعد . .

أعود للمكان المصبوغ بالبياض ، القلوب البيضاء ، والأسرة البيضاء . . والحيطان البيضاء ، وعيون الرحمة والمودة التي تعانق وجعي . . وتحاول تخضير ساعات يومي ، وقتل ساعات ليلي . .

ما أعظم الإنسان عندما يكون إنساناً

هذا هو سر التفوق .

* * *

السؤال..

السؤال..

سألت نفسي اليوم ، كما أسألها كل يوم : ترى ما الذي يشغلني عنك؟

أردت أن تعرف أن أمواج البحر ، إن هدأت هي أو ثارت وعلت بيضاء . . تلاحق بعضها بعضاً كما الغيوم الهاربة في السماء الصيفية . .

هذه لا تشغلني عنك . .

وإن هموم الوطن الصغير ومفازات الوطن الكبير ، بكل ما تحمله من عذابات وقلق وأحلام لا تشغلني كثيراً عنك . .

وإن صوت الرعد ، وكم يذكرني بك ، وصوت البرق الذي يخطف البصر . . بضوئه الخلاب

وان صراخ الأولاد والحفدة ، يلعبون في حديقة الدار أو يوشوشون لبعض الورد فيها ، أو يتنادون إلى الألعاب الذكية في غرفة مدوزنة بموسيقى الكمبيوتر . . .

كل هذا لا يشغلني عنك . .

قـراءة الصـحف ، الموسـيـقى ، السـفـر ، همـوم العـمل وهمـوم الناس التي أحـمل على كتـفي يومـاً بعـد يوم ، فتـجـعل الإرهاق صديقاً دائماً لروحي . .

والبحث عن لحظة فرح حلماً ، أو ما يشبه الحلم

كل هذا لا يشغلني عنك . .

هل تعـرف يا سيـدي إذن ما الذي عنك يشغلني كل سـاعة عمر . .

أنت وحـدك تشغلني عنك فتـابع رحلتك في الدورة الدمـوية وحين تتوقف عند القلب ،

نادني لأعرف أنك وصلت إليه ، للمرة الألف ، بعد الألف . .

وإن رحلت . . لم ترحل . .

* * *

كيمياء البشر

كيمياء البشر

أكتشف نفسي . . أكتشف كيمياء البشر . .

أسمِّي الأسماء بأسمائها . .

أرفض أن أبقى مسالمة كوردة أو كعصفور يقتل . .

أحمل اسمي على ظهري وأرحل . .

أصنع من الحاضر شمساً . . وأستعير أقدام المستحيل . .

فالعالم لا ينتظر من لا يأتي . .

فالحجر يظل حجراً لا يتحرك . .

والأملُ إذا لم يظلله التفاؤل يقتله اليأس . .

أتوسدُ صدرَ الليل وأنامُ خفيةً في عيون قمر لا يأتي . .

وأترك هواجسي عند أقدام الصباح . .

ألملم نفسي أسافر من غير موعد . .

فلا زمان ينتظرني . . ولا مكان يستقبلني . .

أبعثر الزمن . . وأركب صهوة السحاب ، وأعيش في ذاكرة الرياح . .

أمحو الماضي . . أقتلع الجذور . . وأفتح دروباً كالسراب تلهث وراءَها العقول . .

أعجن هذا العصر الهلامي ، وأنثره على سواحل النسيان . .

أضحك وأبكي من هذا الزمن الرملي . .

وأدخل في شريان المستقبل أوقد شمعتي . .

أنتظر سقوط شلال الدهشة من عالم آخر . .

وأبقى سجانةً وسجينةً داخل نفسي . .

كلُ شرايين هذا العصر مقفلة . . مبعثرة ولا شيء يجمعها غير الخرافة . .

أستأصل الوجع . . أغسل عقلي مما ترسب به من مخلفات . .

أفتح نوافذ الاجتهاد ، أحافظ على داخلي نظيفاً وبريئاً كطفل . .

أقطع صلتي بمن قبلي وأحيا مع نفسي . .

أخترق حاجزَ الزمان والمكان . .

أتخذ من ابتسامة أحفادي أوراقاً أكتب عليها . .

ومن براءة عيونهم حبراً . . ومن حكاياتهم ثوباً أرتديه . .

أغسل نفسي في ضوء براءتهم . .

وألملم دموعهم ورقاً كي أسجل عليه جنتي وجحيمي . .

أخترع شيطاناً وملاكاً وأدخل معهما في سباق لا ينتهي . .

للأرض أجنحة كما للعصفور . .

وللسماء دموع كما للأطفال . .

ولنفسي هواها . . وللماضي ذاكرة غبية . .

أسجن السماء في قبضتي ، وأطلق سراحَ الأرض . .

كي أجعل العالم يركب موجةَ المدنية . .

ويرحلَ بعيداً على عيون الجاهلية الجديدة . .

يمتزج دمُ التاريخ بدمي . .

تصرخ أوراقي تعلنُ عصيانَها . . وأنا أنسج ثوباً مائياً كي تلبسه مدنُ الغبار . .

الدم طازج على دفاتري . . ولعنات أهل الكهف تتبعني . . وآهات أمي وأبي . .

أقتل وطن الخوف في داخلي . . .

وأخترع وطناً جديداً لا يسيجه الضيَاع . . ولا تلفه الحيرة . . .

ولا يسكنه الرعب ولا يمشي إلى الهاوية . . . له قامة السحاب . . . وامتداد الأفق . . .

على عجل أنا . . والوطن يتبعني ناشراً أسراره بين عيني . .

فاتحاً جرحاً نازفاً حاملاً الزمن الرمادي على نقالة الموتى . . حارقاً التاريخ وكتب الغبار . .

أحطم في داخلي الآلهة التي صنعتها والتي أخذت شكل الوثن . .

أمزق كل نص يربطني بالجاهلية الجديدة . . وأنزع من جلدي وشم القبيلة النائم في سكينة الموتى . .

تجذبني نحو ساحل الموتى . . وأنا

أفر نقية إلى حقول المعرفة من رماد أيامنا الماضية . .

وألمح بين أسوار السجن وأسوار المنفى خريفاً تتساقط أوراقهُ فوق جراحنا . .

ما من شجرة أو جدول أو وردة ما تعذبت . .

عقولنا آنية يثقبها الرعب . . وجرح تناثر عليه الملح . . وصحراءُ بلا شجرة أو نبع ماء . .

وجبالُ يسكنها الشوك ، والشك .

الاصطياف...
خارج حدود الذاكرة

الاصطياف . . .
خارج حدود الذاكرة

ليت للذاكرة مفتاحاً يستطيع به الإنسان أن يغلقها لمدة شهر أو شهرين أو خلال إجازته الصيفية على الأقل . .

إنني أبحث من زمان بعيد عن ذاكرة لها قفل ومفتاح ، أضع فيها كل الأخبار السياسية في العالم العربي ، في جارور . . وأهرب . .

إن الذاكرة السياسية العربية أصبحت قنبلة موقوتة نحملها معنا في حقائبنا ، فتنفجر بنا ونحن نتناول طعام العشاء . . . أو نسبح على شاطئ البحر . . أو نجلس على مقعد في حديقة عامة .

إن الأوروبي الذي يذهب إلى إجازة الصيف . . لا يحمل معه إلا كتابه ، ومايوه الاستحمام ، وزورق البحر ، وقبعة الشمس ، وحذاء المشي . . .

أما العربي ، فإنه يسافر ومعه عشرة كيلو غرامات من الجرائد

فيها من السموم ما يكفي لهلاك مدينة . . ومن المنغصات والأخبار المأساوية ، ما يكفي لإبادة قارة بكاملها .

لماذا الأوروبي قادر أن ينفصل عن الحديث السياسي في بلاده ويستمتع بالشمس ، والبحر ، والجبال ، والغابات . . في حين يحمل العربي أحزانه وكوابيسه معه ، ويبقى خلال أيام إجازته مشنوقاً على حبال موجات الإذاعات العربية ، ومحبوساً في زنزانة الصحف العربية التي تصدر في أوروبا .

لماذا يعتبر الأوروبي الإجازة وسيلة للنسيان والتحرر من إيقاع الحياة اليومية المتشابهة ، ويحاول أن يستمتع بكل دقيقة من أيام إجازته . . في حين العربي يحمل معه زجاجة مليئة بالسموم يتناول ملعقة منها حين يستيقظ ، وأخرى قبل أن يأوي إلى الفراش؟؟

لماذا يحمل العربي النكد معه إلى أجمل بلاد الدنيا ، فيرى بحيرة جنيف بغير مياه . . ويرى غابات فيينا بغير شجر . . . ويرى العصافير في الحدائق العامة بغير أجنحة . . ويرى السماء بغير نجوم . . ويرى الريف البريطاني مالحاً يابساً موحشاً كالربع الخالي؟؟

لماذا نحن مصابون بالمازوشية وبلذة تعذيب النفس ، إلى درجة الانتحار؟؟

إن السياسة العربية كأغنية الشيطان لا يمكن أن تنتهي في القرن الحادي والعشرين . . أو الثاني والعشرين . .

فلماذا لا تشترون قفلاً ومفتاحاً لذاكرتكم . . كما فعلت أنا . . وتعيشون إجازتكم بعيداً عن الهلوسة والكوابيس ومسرح اللامعقول .

* * *

تجسّس.. يتجسّس.. تجسّساً

تجسّس.. يتجسّس.. تجسّساً

الجاسوسية أصبحت علماً قائماً بذاته ، كعلم التشريح ، وعلم النفس ، وعلم الكمبيوتر ، وعلم الذرة . ولكي يصبح المرء جاسوساً عظيماً ، لابد له أن يطلب العلم ولو في الصين ، وأن يتمتع بالذكاء ، والثقافة ، والفطنة ، والمتابعة ، وسعة الاطلاع ، والصبر ، والتفاني في عمله إلى درجة التصوف .

وقد أصبح تأسيس أجهزة التجسس لدى الدول عملاً مشروعاً وأخلاقياً وضرورياً لحماية الأمة ، كتأسيس المدارس ، والمستشفيات ، والأندية الرياضية ، والحدائق العامة ، والطرقات . وأصبح كبار الجواسيس معترفاً بهم كأبطال قوميين ، تقام لهم التماثيل ، وتُدرس أخبارهم في كتب التاريخ .

وكلنا يتذكر كيف أعادت إسرائيل ألوف الأسرى السوريين الموجودين في سجونها لقاء أن تحصل على جثة جاسوسها الخطير كوهين الذي أعدمته دمشق في السبعينات . بعد أن ضبطته يرسل أسرارها العسكرية إلى إسرائيل من جهاز إرسال مخبوء داخل قطعة صابون . . .

وأنا أكتب هذا الكلام ، تذكرت أخبار الفضيحة الكبرى التي هزت كيان دولة ألمانيا - الاتحادية ، بهرب رئيس جهاز التجسس فيها (هانز تيدج) بعد أن قضى حوالي عشرين عاماً في مركزه الخطير يجمع الأفلام ، والمعلومات ، والصور ، والخرائط ، بعد أن طار إلى ألمانيا الشرقية حاملاً معه ثروة معلوماتية التي لا تقدر بثمن .

وقد لا تكون هذه أول حادثة ولا أخر حادثة في تاريخ التجسس ابتداءً من الملعونة الذكر «ماتاهاري» إلى «هانزيتدج» رئيس دائرة التجسس في ألمانيا الاتحادية . ولكن لما كان الشيء بالشيء يذكر . . . فإنني أريد أن أعقد مقارنة بسيطة بين فن التجسس عندهم . . وفن التجسس عندنا . .

ففي حين يستهدف التجسس عندهم ملاحقة الأسرار الحربية ، وأنواع السلاح ، واستراتيجية الدولة العسكرية ، وجميع الخطط المتعلقة بالتطورات التكنولوجية ، نلاحظ أن التجسّس عندنا هو مطاردة الإنسان في خصوصياته ، ومكالماته الهاتفية ، ورسائله ، وعلاقاته الزوجية والعائلية والمهنية .

ثم إن الجاسوس الغربي يصدر عن أيدلوجية فكرية يعتنقها كأن يكون ماركسياً في دولة يمينية ، أو أن يكون يمينياً في دولة ماركسية . .

أما الجاسوس عندنا . . فمرتزق . . وبلطجي . . وكومسيونجي معلومات وفضائح وصور جنسية . وقد كان لدى جهاز المباحث العامة لبعض الدول ، ألوف الأشرطة من صور «البورنو» بعضها حقيقي وأعظمها مركب . لأكثر رجال السياسة ، وهم في حالات حميمة جداً . . .

وخلاصة القول ، إن كل شيء يصل إلى أيد عربية ينقلب إلى ضده . . ففي حين يبحث الجاسوس الغربي عن المراكز النووية ومكان تركيب الصواريخ الموجهة ، ومكان مصانع الأسلحة والمطارات ، يبحث الجاسوس العربي عن عناوين الغارسونيرات . . وأرقام تلفونات . . وسيارات النساء اللواتي يترددن على الوزير الفلاني ، أو زعيم الحزب الفلاني ، أو رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان . . تمهيداً لابتزازه عندما ينتقل إلى صفوف المعارضة . .

إن جواسيس العالم يتخرجون في أكاديميات ومعاهد التجسس . . أما جواسيسنا فإنهم يتخرجون من جامعة الدسّ والنميمة ، ويجمعون معلوماتهم من المقاهي العامة ، والأزقة ، وأكوام النفايات . .

الجاسوس عندهم ينوي تعمير وطنه . .

أما الجاسوس عندنا فيعمل على خراب بيوت الناس . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .

الإجازة..
هذه المهمة المستحيلة

الإجازة..
هذه المهمة المستحيلة

الإجازة ، اختراع أمريكي وأوروبي ، يعني الانفصال لفترة شهر أو خمسة عشر يوماً عن ضغوط الواقع اليومي ، وروتين العمل أو الوظيفة ، وميكانيكية الأيام المتشابهة . وإذا كان الأمريكي يستطيع أن ينفصل بسهولة عن مشاكل البيت الأبيض ، والكونغرس ، والبنتاغون ، ليأكل البيتزا في روما . . والجبنة البيضاء في قبرص . . ويسترخي على شواطئ جزر اليونان . . . فإن العربي الذي يقف البيت الأبيض وراء جميع مشاكله ومتاعبه السياسية ، لا يستطيع أن يستمتع بالشمس ، أو القمر ، أو بالبحر أو بالسباغيتي في أي مكان في العالم . . لأن الرئيس الأمريكي جعل العالم معقداً ، ومتأزماً ، ومتداخلاً ببعضه كطبق السباغيتي .

الأمريكي يلاحقك على إفطار الصباح . . وعلى الغداء . . والعشاء . . ويخرج لك من قنينة المياه المعدنية . .

ومن عناوين جريدة الهيرالد تريبيون (الطبعة الدولية) . . .

ليجعل نهارك أسود . . وابتسامتك من البلاستيك . . وإجازتك الصيفية زفتاً . . .

إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تسيطر على العالم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً فحسب . . ولكنها تسيطر على مصادر الفرح فيه . . . والدولار يبقى - شئت أم أبيت - سيفاً مسلطاً فوق رقبتك ، ومنشاراً ينشر عظامك على الطالعة وعلى النازلة ، عندما تحاسب الفندق . . وعندما تحتسي فنجان القهوة ، وعندما تستأجر التاكسي . . وعندما تصلي في الجامع . . أو تدخل إلى الكنيسة . . كل شيء . . يدفع السائح ثمنه بالدولار الأمريكي وكأن السماء لا تمطر إلا دولارات أمريكية . . . وكأن السماء أقفلت أبوابها في وجه الفقراء . . وكأن السماء أعطت الأولوية لمن يحملون العملة الصعبة .

فإلى أين يذهب السائح العربي ، وكلمات طارق بن زياد المأثورة تطن في أذنيه؟؟ «البحر من ورائكم . . والدولار من أمامكم . . .»

والشاطر الشاطر هو الذي يستطيع أن يسدد فاتورة الفندق . . دون أن يدخل في نار الدين . . إن مواطني دول العالم الثالث ، ممنوعون لا من الإجازة فقط . . بل حتى من الحلم بها . .

وهذا نوع جديد من التفرقة العنصرية ، فحين يستطيع المواطن الأمريكي أن يستحم في مياه البحر الأحمر ، أو مياه الريفييرا الفرنسية . . فإن المواطن الهندي ، أو المصري ، أو الموريتاني أو الصومالي ، أو الباكستاني . . لن يستطيع الاستحمام بعد اليوم إلا في مياه دموعه . .

* * *

تعال إلى جزيرتي..
تعال إلى باربيدوس

تعال إلى جزيرتي . .
تعال إلى باربيدوس

عندما كنت أقرأ عن المدينة الفاضلة أو «اليوتوبيا» التي تحدث عنها الفلاسفة الإغريق والعرب ، كنت أتصورها مدينة ذهنية بحتة لا توجد إلا في عقول الفلاسفة وتصوراتهم . . أما على أرض الواقع فكل المدن ملعونة ، وشريرة ، وغير فاضلة .

ولقد ظللتُ على شكوكي هذه ، حتى أتاحت لي أسفاري أن أنزل في جزيرة من جزر البحر الكاريبي اسمها «باربيدوس» .

«باربيدوس» تكوين غير عادي من تكوينات البحر ، ومن مشتقات اللون الأخضر . . . وإنسانُها لا يشبه فصيلة الإنسان ، فهو مزيج من الإنسانية والنبوة معاً . .

بحر «باربيدوس» لا يشبه بقية البحار ، فهو تنويعات من الأزرق ، والكحلي ، والبترولي ، والرمادي ، والأخضر ، والبرتقالي ، والبنفسجي . . .

وقمر «باربيدوس» لا يشبه أي قمر آخر . . فهو يتجلى لك

مرة على شكل طاووس من الذهب ، ومرة على شكل عريشة ياسمين ، ومرة على شكل سوار من الياقوت في معصم امرأة جميلة . . . ومرة على شكل كأس من الكريستال . . ومرة على شكل راقصة باليه ترقص على صوت الطيور الليلية . . .

أما نخيل «باربيدوس» ، وأشجار جوز الهند فيها ، فهي مشغولة طول النهار بتمشيط شعرها بمياه الكاريبي ، حتى إذا ما غابت الشمس تركت أمشاطها على رمال الشاطئ . . ونامت . .

أما مطر «باربيدوس» فيشبه عاشقاً مجنوناً ، ومزاجياً ، وغريب الأطوار . . . لا تعرف متى يرضى ، ولا تعرف متى يغضب ، وهو ككل العشاق المجانين ، يأتي بغير موعد . . ويذهب بغير موعد . . ولكنه في كل زيارة يترك على نافذتك رسالة حب خضراء . .

على أن المعجزة الكبرى في «باربيدوس» ليست البحر ، ولا المطر ، ولا القمر ، ولا أشجار جوز الهند ، ولا مزارع قصب السكر . . .

المعجزة الكبرى هي إنسان «باربيدوس» الرائع في جلده الأسود وقلبه الأبيض ، الذي يعطيك ثمرة جوز الهند بيده اليمنى . . وقلبه باليد اليسرى ، ويغني لك الأغنية الشعبية الشهيرة . .

«تعال إلى جزيرتي . . تعال إلى باربيدوس» . .

دمعتان في بيت موزارت

دمعتان في بيت موزارت

عندما يصل السائح إلى مدينة سالزبورغ في النمسا ، ويسأل إدارة الفندق عن أهمّ معلم سياحي عليه أن يزوره ، فإنه يتلقى جواب سؤاله على الفور :

«طبعاً إنه بيت مواطننا العظيم . . . موزارت» . .

ويبتسم لك الموظف النمساوي الأشقر بكل اعتداد وعنفوان . . كأنما أعطاك مفاتيح الكنز المسحور ، وكأنما ليس في تاريخ النمسا العريق ، ما يستحق الحج إليه ، سوى بيت موزارت . .

نعم . . . إنهم في سالزبورغ يعتبرون موسيقارهم النابغة قديساً ، ويعتبرون بيته مزاراً . . ويعتبرون أشياءه الصغيرة التي تركها وراءه ، كالقبعة ، والغليون ، ومنفضة السجائر ، وربطة العنق ، والقمصان والأحذية التي كان يرتديها ، والبيانو الذي كان يعزف عليه . . والنوتات الموسيقية المكتوبة بخط يده . . . والرسائل التي أرسلها لأصدقائه . . بمثابة مقدسات قومية لا يجوز لمسها . .

طبعاً التاريخ النمساوي عريق وغني بالقصور والتماثيل والمتاحف ، كما هو غني برجال السياسة الذين لعبوا دوراً بارزاً في

رسم السياسة الأوروبية كالسياسي الداهية مترنيخ . . . وطبيب النفس الشهير سيغموند فرويد . . . ولكن النمساويين يضعون موزارت في كفة . . ويضعون كل ما تبقى من عظمائهم وتاريخهم في الكفة الأخرى . .

إذن . . فالمبدع في التقييم الأوروبي ، يأتي أولاً . . أما الحكام والسياسيون والوزراء فيأتون في المرتبة الخامسة أو العاشرة . .

إن البطل الحقيقي لدى الأوروبيين هو الذي يُغني البشرية بأشياء الجمال . . أما البطل الحقيقي عندنا فهو الذي يقود انقلاباً يستولي فيه على السلطة ويغتصب الشرعية . .

في بيت موزارت بكيت مرتين ، مرّة من شدة التأثر لما رأيت من تكريم لأصغر قصاصة ورق تركها موزارت . . .

ومرةً أخرى بكيت لأنني أنتمي لعالم عربي يأكل لحم مبدعيه وهم أحياء . . ويحرق أجسادهم بعد موتهم على الطريقة البوذية . . .

* * *

كويتية في فينيسيا

كويتية في فينيسيا

السيدة فينيسيا . . امرأة مهووسة بالماء إلى حد الجنون . . . مازالت تقف تحت الدوش منذ آلاف السنين . . حتى اخضرّ جسمها من تراكم الأعشاب البحرية . . واستوطنت قبائل من السمك والمحار وطيور النورس في كفّيها . . .

تزوجت البحر بعد قصة حب طويلة . . وأنجبت منه عشرة آلاف جندول . . تؤوي في صدرها خمسين بالمائة من عشاق العالم . . وتعلمهم أبجدية الحب من ألفها إلى يائها . . حتى صار الجندول باعتراف الذين درسوا العشق على يديها ، جامعة أهم من جامعة أكسفورد . . أو جامعة هارفرد . .

السيدة فينيسيا من فصيلة زهر اللوتس ، تسكن في بيت من ماء . . وتنام على سرير من ماء . . وتكتب قصائدها على دفاتر الماء . . ولو أرغموها على الخروج من وطنها المائي . . لاختنقت كسمكة فصلوها عن طفولتها .

السيدة فينيسيا ، سيدة جميلة جداً . . . ومجنونة جداً . . ولا

تزال تحتفظ في عصر الكمبيوتر والصواريخ العابرة للقارات بكل تقاليد العصر الرومانسي وميراثه . .

السيدة فينيسيا هي آخر مدينة في العالم يستوطنها الحلم . . آخر ما تبقى من عصر الرومانسية . . آخر حمامة بيضاء في عصر الرعب النووي . . وآخر مخطوطة شعرية كتبها شعراء الحب الإنكليز والفرنسيون والإسبان ، قبل أن يفترس الكمبيوتر قلب الإنسان . . .

السيدة فينيسيا تصنع الزجاج الملون . . . وتصنع الدانتيل الجميل . . ولها جيش يتألف من عشرة آلاف حمامة يرابط ليلاً نهاراً في ساحة سان ماركو . . وينقر الحَبَّ من راحات الأطفال . . ويأخذ الصور التذكارية معهم . . .

حمام ساحة سان ماركو يحط على رأسي . . . ورأس أولادي وأحفادي . . ويعاملنا برقة استثنائية ، وحنان خاص . . . كأنه قرأ ما في عيوننا من خوف وحزن . .

هل ترى يعرف حمام فينيسيا . . إننا عرب قادمون من الأرض التي يذبحون فيها الحمام . . ويذبحون السلام؟ . .

هل يعرف حمام فينيسيا أنني قادمة من الكويت؟ . .

* * *

قفا نبك.. على جدار برلين

قفا نبك .. على جدار برلين

منذ سنوات سافرت مع أولادي في باص سياحي وشملت جولتنا أكثر بلدان أوروبا الغربية والشرقية .

وكان حلماً من أحلامي ، أن أشاهد جدار برلين ، لكثرة ما سمعت عن هذا الحاجز اللاإنساني الرهيب .. الذي فرّق شمل ألوف العائلات الألمانية ، كما سمعت عن ألوف الضحايا الذين سقطوا وهم يحاولون التسلق على الجدار من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي .

وعندما وصل الباص السياحي بنا إلى الجدار الرمادي الداكن ، المغطى بالأسلاك الشائكة ، والمخفور بنقاط الحراسة والتلسكوبات ، شعرت بانقباض شديد وهيّأت نفسي لدخول (مصيدة الفئران) ..

الإجراءات التي تعرضنا لها عند اجتياز حائط الرعب ، كانت بمنتهى البطء والغرابة ، فقد (نخلوا) الباص السياحي نخلاً .. وفتشوا فوق المقاعد .. وتحت المقاعد .. وكاميرات التصوير .. وراديوهات الترانزيستور .. وطلبوا من كل راكب بما في ذلك

الأطفـال أن يفتـح جـواز سـفره على الصفـحة الخـاصة بالصـورة الفوتوغرافية لكي يطابقوا بين الأصل والصورة .

ولقـد شـاهدتهم من النافذة وهـم يدخلون تحت البـاص مـرآة عاكسة كبيرة ليتأكدوا أنه ليس ثمة متسلل متعلق بأسفل السيارة . .

لقـد أحصـونا واحداً واحـداً كقطيع من الماعـز . . وكـان الكبـار ذاهلين . . والأطفال شـاحبين . . وعندما أطلقوا سراحنا شعرنا بأننا ولدنا من جديد . . وبدأنا نهنئ بعضنا بالسلامة على الخروج من التابوت .

إن ثلاث سـاعات فقط قضيناها وراء جدران برلين سببت لنا الشعـور بالاختنـاق ، وأعطتنا الشعـور بأننا مجمـوعة من السجناء ينتظرون قـرار الإفراج عنهم . . فمـا بالك بالشعب الألماني العريق الذي قـضى سنوات وهو يتطلع من ثقـوب الجـدار . . إلى من يحبهم . . ولا يستطيع أن يطالهم .

ولقـد رجـعت من رحلتي هذه ، وأنا متـأكـدة بأن مـا رأيته لم يكن أكثر من فيلم بوليسي مرعب من أفلام هيتشكوك . . استمر عرضه سنوات طويلة . . ولابد أن ينتهي ذات يوم . .

انتهى الفيلم البـوليسي . . وسقط الجدار اللاإنساني . . وهو ما سيـحدث لـكل جدار يقـام فوق جـثة الإنسـان ، وفـوق كـرامته

وحريته . . وهذا ما سيحدث للجدار الفاصل في أرضنا المحتلة في فلسطين . . .

تذكرت هذا عندما أهدتني صديقة عائدة من أميركا سلسلة مفاتيح عليها قطعة من جدار برلين للذكرى . . وهكذا أصبح الجدار ذكرى . .

* * *

العقل.. يأكل نفسه

العقل.. يأكل نفسه

عندما قال الشاعر اللبناني الكبير بشارة الخوري في إحدى قصائده الغنائية :

جفنه علَّم الغَزَل

ومن العلم ما قَتَلْ

ظننا أن العبارة لم تكن أكثر من شطحة من شطحات شاعر الهوى والشباب . وأن العلم الذي يقصده هو بعيون المحبوب ، ونضارة خدّيه . .

ولكن نبوءة بشارة الخوري - والشعراء دائماً تصدق نبوءاتهم - أصبحت تصحّ على العلم بكل حقوله ، وكل فروعه وتطبيقاته .

فالعقل البشري ، على ما يبدو - تجاوز الخطوط الحمراء التي رسمت له . . وأخذ يمارس التخريب ، فوق سطح الأرض ، وتحت سطح الأرض ، ويثقب بصواريخه العابرة للقارات غلاف الكرة الأرضية بما يهدد الجنس البشري جميعاً بالزوال .

وربما قال قائل : ولكن هذه هي الحضارة . .

وأنا أقـول : إن الحضـارة لا تنفصل عن الرادع الأخـلاقي أبداً ، فحـضارات الشرق القديم ، من هندية ، وفـرعونية ، وفـينيقـية ، وآشـورية ، وكنعانية ، وبابلية ، وسومرية ، كـانت حضارات عريقة وخالدة لأنها لم تنفصل عن القيم الإنسانية والمثل الأعلى .

فالرسامون ، والنحاتون ، والمعماريون ، والشعراء ، والفلاسفة في عصر النهضة قدّموا للبشرية حضارة عقلية وفنية مذهلة . . دون أن يلجأوا إلى التخريب .

أما علماء هذا العصر فإنهم يستبيحون كل شيء حتى يصلوا إلى الحقيقة ، ولو كانت هذه الحقيقة فيها دمار للجنس البشري . .

إنهم المسؤولون عن انتشار التلوث وثقب غلاف (الأوزون) وتسويق النفايات الذرية ، وانقراض الأفيال ، وموت الغابات ، وإجراء التفجيرات الذرية في باطن الأرض . . تلك التفجيرات التي غيّرت مناخ الكرة الأرضية وجعلت صيفها شتاء . . وشتاءها صيفاً .

حتى جهاز (الكمبيوتر) الذي قيل عنه معجزة العقل البشري ، أصبح يتآمر على نفسه ، فقد تمكن بعض العلماء اللصوص من اختراع ما سموه (فيروس الكمبيوتر) يستطيع أن يدمّر ذاكرة أي

كمبيوتر يختاره ، ويمحو كل المعلومات المخزونة فيه ، كما يدمّر فيروس الإيدز مقاومة الجسد الإنساني .

وصدق الشاعر بشارة الخوري حين قال «ومن العلم ما قتل» . . .

* * *

عن القهوة.. والمقاهي..

عن القهوة.. والمقاهي..

القهوة هي أهم اختراعات الإنسان .

والذي اخترعها هو بغير شك مصلح اجتماعي عظيم . .

فبغير القهوة ، لم تكن المقاهي ، وبغير المقاهي لم يكن الحوار ممكناً ، وبغير الحوار كان الإنسان جزيرة معزولة عمّا حولها .

وبصرف النظر عن كل ما يقال عن مضار القهوة ، ومما تسببه من قلق وتنبيه لأعصاب الإنسان ، فإن فضائلها أكثر بكثير من مساوئها .

ففي تاريخ الأدب لعب المقهى دوراً مرموقاً في تجميع الأدباء ، والشعراء ، والفنانين ، والمفكرين ، حتى تحوّل المقهى إلى أكاديمية ثقافية .

وكلنا يذكر كيف كان مقهى (الفلور) في حي سان جيرمان في باريس المكان التاريخي الذي انطلقت منه الحركة الوجودية بممثليها الكبيرين جان بول سارتر وصديقته سيمون دو بوفوار .

ومقهى (الفيشاوي) ومقهى (ريش) في القاهرة ، ومقهى

(البرازيل) في دمشق ، ومقهى (الهورس شو) في بيروت . . كانت صروحاً ثقافية تَخرّج منها كبار أدبائنا وشعرائنا ومفكّرينا . .

إن عالم (المقاهي) عالم عجائبي حقاً ، فمن أراد أن يتكلم في السياسة يجد في المقهى مبتغاه . . ومن أراد أن يتكلم في الأدب يجد في المقهى مبتغاه . . ومن أراد أن يتكلم مع نفسه ، فإن المقهى يؤمن له هذا الحوار الداخلي . . ومن أراد أن يهرب من مشكلة تلاحقه فإن المقهى يمنحه حق اللجوء السياسي . .

أما العشاق فإنهم يجدون في المقهى ملجأهم وخيمتهم ، فعلى فنجاني قهوة يطيب الهمس ، وتحلو النجوى ، وتنهمر الاعترافات كقطرات المطر ، فكأن نكهة البنّ العابقة من فنجان (الإكسبرسو) تردّ إلى الحب اعتباره ، وتعطيه شرعيته . .

كل شيء يمكن أن يحدث في المقهى ، ابتداءً من الانقلاب العسكري ، إلى الخطبة . . إلى الزواج . . إلى تأليف الوزارات . . إلى التنظيرات الأيديولوجية والثقافية .

إن الذي اخترع المقهى . . لا يقل في عبقريته عمن اخترع الراديو ، والتلفزيون ، والتلفون ، والتلكس ، والفاكسميل ، والكمبيوتر ، والأقمار الصناعية . . والمؤسسات الصحفية .

فالمقهى ، نقل أخبار الناس ، وأفكارهم ، ومذاهبهم الأدبية والفنية قبل أن تكون وسائل الاتصالات الأخرى قد وجدت بعد .

انتصارات الإنسان

انتصارات الإنسان

عندما بدأت الانفجارات تتلاحق في دول المنظومة الشيوعية ، هل كانت تعني انتصار النظام الرأسمالي على النظام التوتاليتاري؟

الأمر ، ليس بهذه البساطة .

فلا حلف شمال الأطلسي هو الذي ربح الجولة على حلف وارسو . . ولا جورج بوش هو الذي انتصر بالنقاط على ميخائيل غورباتشوف .

المنتصر الأكبر في تلك المعركة هو الإنسان . . بما هو قيمة ، وطموح ، ونزوع إلى الحرية .

وإذا كان الغرب يبدو سعيداً بتلك التحوّلات المتلاحقة التي تجري وراء الستار الحديدي ، وإذا كان يهيء نفسه لقطف ثمار (ربيع براغ) أو (ربيع برلين) ، فإن تلك التحوّلات التاريخية ليست دليلاً على أن النظام الرأسمالي نظام نموذجي ، وصحّي ، وأنه معصوم من الهزات والنكسات .

وإذا كانت الحروب الاستعمارية قد أفل نجمها مع القرن التاسع

عشر ، فإن الحروب الاقتصادية التي يشنها الغرب على الدول الجائعة ، والعارية ، والعاجزة عن تسديد ديونها ، لا تحتاج إلى منجم مغربي ، فالضغوط الذي يمارسها صندوق النقد الدولي على الدول الإفريقية والآسيوية المدينة ، هي أشبه بهراوة رجل البوليس .

إذن فالنظام الرأسمالي ليس نظاماً سماوياً ولا نصف سماوي ، بل هو نظام يحكمه الجشع ، والابتزاز ، واحتكار ثروات العالم .

لذلك فنحن لا نستبعد أن تكون (الانتفاضة) الثانية . . هي انتفاضة الإنسان في أوروبا الغربية على حكم المافيات الاحتكارية ، وشبكات المضاربين ، وتجار الأسلحة ، ومهربي المخدرات .

قد يكون الإنسان في الغرب ، يمتلك نوعاً من الحرية النسبية لا يملكها الإنسان في المنظومة الاشتراكية ، كحرية التعبير ، وحرية التملك ، وحرية السفر ، وحرية التظاهر ، والإضراب ، ولكن الإنسان الغربي رغم كل هذه الحريات الصغيرة التي يتمتع بها ، يبقى خائفاً كالسمكة الصغيرة في بحر تملؤه حيتان الصفقات والعمولات والمخدرات التي لا تشبع .

* * *

حلم ليلة صيف..

حلم ليلة صيف..

للمرة الأولى - يقرر قادة الأمة العربية في مؤتمر القمة الاستثنائي الذي عقدوه، أن (يكونوا عرباً) بكل ما تعنيه كلمة العربي من رجولة، وشجاعة واقتحام.

وللمرة الأولى، يتخلون عن بلاغتهم التقليدية، وتشابيههم، واستعاراتهم ويخاطبون العالم باللغة التي يفهمها.. بعد أن ثبت لهم، أن لغة بديع الزمان الهمذاني، والجاحظ، ومقامات الحريري، لن توصلهم إلى أي مكان...

وربما، للمرة الأولى في تاريخهم الحديث، يتخلص العرب من عقدة الخوف الأميركية أو بتعبير أكثر دقة، من عقدة الانبطاح الأميركية ويبصقون الحصاة في وجه الكونغرس الأميركي، فحملته المسؤولية الكاملة عن الوقوف وراء إسرائيل منذ ولادتها في ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨، وإغراقها بالمال والسلاح والمساعدات الاقتصادية حتى أسنانها، بحيث تستطيع أن تهزم العرب مجتمعين... وأن تبيد الشعب الفلسطيني كخطوة أولى، والانقضاض على الشعب العربي كخطوة ثانية.

لقد أصبحت الولايات المتحدة في مجلس الأمن الدولي هي محامي الشيطان الذي يقلب الحق إلى باطل ، والباطل إلى حق . حتى أصبح استعمال «الفيتو» من حقوق الشعب العربي الفلسطيني عادة أميركية يومية .

ولو لم يكن لمؤتمر القمة ، سوى إنجاز واحد ، هو إسقاط ورقة التين عن جسد الإدارة الأميركية ، لكفى . .

إن تسمية الأشياء بأسمائها ، كان لابدّ منها ، لوضع حدّ لهذا التداخل العضوي بين جسدين هما في الحقيقة جسد واحد . . ولفصل هذا التوأم الإمبريالي الملتصق ، الذي نصفه إسرائيلي . . ونصفه أميركي . .

لقد تأخر العرب كثيراً في إجراء هذه الجراحة الضرورية لفصل الوجه عن القناع ، ولجأوا طويلاً إلى الأدوية الخارجية ، والمسكّنات الدبلوماسية دون جدوى . .

وها هم الأطباء العرب ، وبعد «كونسولتوطبي» ، يقررون أن يستعملوا المشرط ، لاستخراج الطرْح من بطن الولايات المتحدة الأميركية . .

ولكنني سألقي الضوء على بعض النقاط الهامة والجديدة في هذه المقررات :

أولاً : استطاع المؤتمر ، أن يضع ميزاناً دقيقاً يحكم علاقات الدول العربية بالعالم ، رابطاً إياها بمواقف الدول الأجنبية من القضية الفلسطينية ، ومن مسألة الهجرة اليهودية .

وهكذا لم يعد هناك محل للعواطف ، والمجاملات ، والرومانسية السياسية على حساب القضايا العربية الكبرى .

فمن يختار جانب إسرائيل ، ويصوّت معها في المحافل الدولية ، ويقويها بالمساعدات المالية والاقتصادية والتكنولوجية ، فإن عليه أن يعرف مسبقاً أن أبواب العالم العربي كله سوف تكون موصدة في وجهه .

وهكذا ، فإن الدول العربية مجتمعة ، سوف تكون قادرة على تطبيق مبدأ الثواب والعقاب ، مع كل دولة تفكر في اختراق أمنها القومي ، واللعب على حبال الازدواجية .

ثانياً : ومن أجمل وأعمق النصوص في البيان الختامي للمؤتمر ، هو ذلك النص الخاص بحق الشعب العربي ، غير القابل للتصرف في التنمية الشاملة ، واستخدام منجزات العلم والتكنولوجيا لصالح المواطن العربي والإنسانية جمعاء .

لقد أدرك المجتمعون ، أن التحدي الأكبر الذي تواجهه الأمة العربية ، هو تحدٍّ علمي وحضاري لكسب رهان المستقبل ، والإسهام الفاعل في إغناء الحضارة الإنسانية .

فالعقل الاستعماري ، يريد أن يحتكر لنفسه كل مصادر المعرفة ، ويترك شعوب العالم الأخرى ، في حالة جهل وتخلف .

إن العقل العربي ، في نظر الغربيين الجدد ، ممنوع من الإبداع ، وممنوع من الخلق ، وممنوع من دخول القرن الحادي والعشرين ، وهو مسلح بكل المعارف الكونية التي تسمح له بالمشاركة في صنع المستقبل .

ثالثاً : وإذا كان الأمن القومي العربي هو المفصل الرئيسي الذي تحرك حوله مؤتمر القمة ، فإن قادة الدول العربية أدركوا ، أن النار التي تقترب من البيت العربي ، تهدد الحيّ العربي بأكمله ، بل تهدد التاريخ العربي ، والجنس العربي ، والأجيال العربية القادمة بلا استثناء . .

ولأن الخطر الذي يحاصر الأمة العربية ، ليس خطراً قطرياً ، أو فردياً ، أو عائلياً ، فقد اعتبر المؤتمرون أن الأمن القومي العربي هو سلسلة متداخلة لا تتجزأ ولا تنفصم ، وأن انكسار إحدى حلقات السلسلة ، يعني انفراط كل أجزائها . . .

وبعد . . وبعد . . .

فقد دخل العرب إلى المؤتمر ، وهم يتكلمون إحدى وعشرين

لغة . . ويتحدثون بإحدى وعشرين لهجة . . ثم خرجوا وهم يتكلمون لغة واحدة . . ولهجة واحدة . .

دخلوا . . وهم يحملون إحدى وعشرين سنبلة . . وخرجوا وهم حقل لا نهائي من الحنطة .

دخلوا . . وهم متفرقون كالأمواج ، ومتناثرون كالزبد . . وخرجوا وفي أصواتهم هدير البحر ، وغضب المحيط الكبير . .

دخلوا . . وهم يلبسون إحدى وعشرين عباءة . . وخرجوا وهم يلبسون عباءة واحدة من القصب نقشت عليها أسماء اللّه الحسنى . . وشعارات الوطن العربي الكبير . .

فقد اقتنع حكماء العرب أن الحكمة دائماً ليست أفضل الطرق لدخول الجنة . . وأن النظرية التي تقول إن قوة العرب في ضعفهم هي نظرية سخيفة . . وانهزامية . . وأن العالم ، منذ أن كان العالم ، لا يحترم إلا القادرين ، والأقوياء ، والشجعان ، الذين يضعون أرواحهم على أكفهم . . ويضربون بقبضاتهم نوافذ المستحيل .

استيقظت من نومي . . وإذ به حلم ليلة صيف . .

* * *

عربة الحرية

عربة الحرية

يتحرك التاريخ في الاتحاد السوفييتي ، وفي دول أوروبا الشرقية بسرعة مذهلة ، وبشكل لم يكن يتوقعه التاريخيون أنفسهم .

والحقيقة أن الذي يتحرك هو عربة الحرية ، التي بدأت تتدحرج بشكل متسارع ، ولم يعد بوسع أي سلطة لجمها ، أو أن تقف في طريقها . .

فالنظرية الماركسية التي كانت تبدو وكأنها اليوتوبيا المثالية والجنة الموعودة للمعذبين في الأرض ، بدأت تشهر إفلاسها ، وأضاع ماركس مركز القداسة الذي أشغله قرابة سبعين عاماً .

لقد نادت الماركسية بسعادة الإنسان ، ولكنها لم تسعده ، ونادت برفع مستواه لكنها أبقته حيث هو ، ونادت بحل قضاياه الغذائية والاقتصادية والإنمائية والثقافية ، ولكنها لم تحل له أية قضية . . وبشّرته بأنه سيكون حراً في مجتمع حر ، ولكنه ظل مقموعاً من المهد إلى اللحد .

لقد انتظر الإنسان الماركسي سبعين عاماً . . حتى يجلس إلى مائدة الطعام . . وعندما جلس إلى الطاولة لم يجد شيئاً يأكله . .

إن ما يجري في بلدان أوروبا الشرقية سببه سقوط الحلم . . وإفلاس النظرية . .

فالنظرية في الكتاب وفي منشورات الحزب شيء . . . وهي في المزارع والمصانع والشوارع الخلفية شيء آخر . .

وربما كان سبب مقتل الماركسية هو أنها اهتمت بالنظرية ، ولم تهتم بتطبيقاتها البشرية . . انشغلت بالنصر ، ولم تدخل إلى المختبر . . تصورت شكل الإنسان القادم ونسيت شكل الإنسان الحاضر . .

هذا الدرس القادم إلينا من بلدان أوروبا الشرقية ، هل قرأناه نحن العرب جيداً ، وهل استوعبنا مضامينه؟ أم أننا كالعادة ضد أنواع الكتب ، وعلى رأسها كتاب التاريخ . . هل أدركنا أن قطار الحرية قد انطلق من محطته ولا سبيل لإيقافه لا بالسلاح ولا بوضع الحجارة على قضبان السكة الحديدية؟

هل أدركنا أن الحرية هي الحل الوحيد لكل ما يعانيه العرب من هزائم ، وانهيارات ، وشرذمة ، وتفكك؟

هل أدركنا أن الإنسان هو العمود الفقري الذي يحمل على كتفيه هذه الكرة الأرضية . . وأن حرية الإنسان هي كالطاقة الشمسية لا يمكن لأحد أن يحجبها أو يمنعها من الإضاءة والانتشار؟

مصر.. بيتنا الكبير..

مصر.. بيتنا الكبير..

هنا نحن مرةً أخرى في بيتنا الكبير مصر . .

وحين أقول بيتنا الكبير ، فإنني أعني ذلك الشعور بالأمان ، والدفء والطمأنينة الذي يشعره كل طفل عندما يعود إلى بيته .

والطمأنينة التي نحسّها عندما نجيء إلى هنا ، هي طمأنينة من نوع آخر .

إنها طمأنينة قومية ، أو طمأنينة ثقافية . . أو طمأنينة مستقبلية . . أو طمأنينة مصيرية .

نعم . . هنا نشعر أننا مطمئنون على ثقافتنا ، ومطمئنون على لغتنا . . ومطمئنون على قوميتنا . . ومطمئنون على عروبتنا .

إن الشعراء العرب لا يأتون إلى هنا ليلقوا قصائدهم فقط . .

ولكنهم يجيئون إلى هنا ليأخذوا المادة الأساسية التي يصنعون منها قصائدهم . . وهي مادة العروبة ، والنخوة ، والكرامة .

نعم . . نحن نجيء إلى هنا لنتعلم . . وما أكثر الدروس التي نتعلمها .

إننا نتعمد هنا بماء العروبة . .

ونأخذ من الغذاء القومي ما يكفينا لنتغذى عاماً كاملاً . .

إن معرض الكتاب ليس حادثاً أدبياً . . أو ثقافياً . . أو شعرياً كما تتصورون . .

بالنسبة لنا حادث قومي عظيم . . بل لعله الحادث القومي الوحيد الذي بقى من مفاخر العرب .

لقد كنا نأمل أن تجمعنا جامعة الدول العربية . . ولكن يبدو أن القاهرة هي التي أصبحت توحد العرب ثقافياً وسياسياً . . بعد أن فشلت كل المؤسسات في توحيد العرب .

ويمكن أن أقول أن القاهرة . . تفتح الآن جامعة ثقافية لحسابها . . .

* * *

وحش جميل اسمه الكمبيوتر

وحش جميل.. اسمه الكمبيوتر

صار الكمبيوتر في هذا العصر جزءاً من تنفس الإنسان ، وجزءاً من دورته الدموية . . إنه كالساعة اليدوية ، موجود في أيدي الصغار ، والكبار ، والمهندسين ، ورجال الأعمال ، وقائدي الطائرات ، وملاّحي السفن ، ورواد الفضاء .

لم يعد الكمبيوتر قطعة كمالية في حياتنا ، بل صار جزءاً لا يتجزأ من أثاث المكاتب والبيوت . . كالثلاجة . . والغسالة الكهربائية . . والتلفون . . وجهاز التكييف . .

فإلى أي مصرف ، أو شركة تجارية ، أو شركة طيران ، أو جامعة ، أو مدرسة ، أو روضة أطفال ، أو سوبرماركت دخلت . . وجدت الكمبيوتر بانتظارك ليحل لك بكبسة زر خفيفة . . كل مشاكلك بثانية . .

إنه يختصر الوقت ، ويختصر الجهد الإنساني ، ويختصر المسافات ، ويختصر ألوف السنين ببضع دقائق . .

وبكلمة واحدة إنه فتاة من فتيات (الجيشا) اليابانيات ، ينزعن

عنك ثيابك ، ومتاعبك ، وهواجسك ، ويغطسنك في حوض من المياه المعطرة ، ويتولين إدارة أعمالك بالنيابة عنك .

طبعاً . . هناك كثيرون مأخوذون بهذا الجهاز الياباني الخرافي ، الذي يضع كل المعلومات الإنسانية بين يديك ، ويجعلك تستلقي على الأرائك الحريرية ، وتأكل العنب البارد من أصابع فتيات (الجيشا) كأنك هارون الرشيد .

أمّا أنا فلست كمبيوترية الهوى ، ولا أعتقد أن الكمبيوتر مع المدى الطويل سيكون في مصلحة الإنسان . . بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول إن الكمبيوتر سيقتل ذات يوم خالقه . .

إن العلماء الذين اخترعوا الكمبيوتر لا يدرون ، وهم في ذروة حماستهم وغرورهم ، أنهم اخترعوا منافساً وعدواً لدوداً لهم ، ومع الزمن ، سوف يزداد ذكاء الكمبيوتر ويقل ذكاء الإنسان ، وتمتلئ ذاكرة الكمبيوتر ، وتفرغ ذاكرة الإنسان ، ويصل الكمبيوتر إلى أعلى ذرى المعرفة ، ويعود الإنسان إلى مرحلة الأمية . .

والنتيجة الطبيعية من هذا الصراع المصيري على امتلاك المعرفة أن عقل الإنسان سوف يصدأ لقلة الاستعمال . . وعقل الكمبيوتر سيتوهج ويزدهر لكثرة الممارسة . . وعندئذ لا يبقى أمام الإنسان سوى أن يستقيل . . أو أن ينتحر . .

وأخطر ما في الكمبيوتر ، أن طموحه يتجاوز منطقة الحسابات

والأرقام ، وتخزين المعلومات إلى منطقة الأحاسيس ، والمشاعر ، والرسم ، والموسيقى ، وكتابة الشعر . يعني أن الكمبيوتر يريد أن يلغي قلب الإنسان . . ويأخذ دوره .

وإذا حصل هذا ، فهذا يعني أن جميع الشعراء والموسيقيين ، والروائيين ، والمسرحيين ، والفنانين التشكيليين سوف يتوقفون عن الإبداع ، ويصبحون عاطلين عن العمل .

أمّا العشاق ، فإن حظهم لن يكون أحسن من حظ الشعراء لأن الكمبيوتر سيزاحمهم على كتابة رسائل الحب . . ويسبقهم إلى مغازلة حبيباتهم ، وربما يسبقهم في سرعة الزواج . . وسرعة الإنجاب .

إنني لا أقص عليكم مناماً سوريالياً ، أو فيلماً من أفلام الخيال العلمي ، ولكنني أقول لكم إنني خائفة . . خائفة . . من هذا الوحش الياباني الجميل الذي بدأ يتسرب رويداً رويداً إلى بيوتنا . . حتى صار أطفالنا ، إذا سألناهم ، ماذا تريدون بمناسبة عيد ميلادكم؟ يجبون دون تردد : Computer.. Please .

ربما يخطر ببالكم أن تقولوا أنني ضد الحضارة . . وضد التطور ، وضد الامبراطور هيروهيتو .

وأحب أن أطمئنكم أنني مع الحداثة ، ولكنني أرفض بكل قوة اغتيال عقل الإنسان . . واغتيال قلبه . .

الفهرس

* بناية حب . . اسمها الكويت ٧
* سيطلع الربيع ١٣
* صندوق العجائب ١٩
* للنساء فقط ٢٥
* بين المرأة الثورة . . والمرأة الديكور ٢٩
* مذبحة المجلات النسائية ٣٣
* المشكلة في الأنوثة ٤١
* المرأة والوطن ٤٧
* الثورة من خلف الشبابيك ٥٣
* عندما تصير الأم وطناً ٥٩
* من ينقذ العصافير من العاصفة ٦٥
* الأطفال هم صناعة المستقبل ٧٣
* لا تذبحوا عصفور الحرية !! ٧٩
* أحزان الكتاب العربي ٨٥
* الكتابة في الزمن المريض ٩٥
* منع التجول . . على الورق ١٠١
* الثقافة . . فعل تغيير وتأسيس ١٠٩
* سأعود إلى بيتي الكويت ١١٣
* صباح الخير . . أيتها الديمقراطية ١٢١
* لا تخافوا على الديمقراطية ١٢٩

* صباح الخير . . أيتها الحرية ١٣٥
* عرس بلا عروس . . ١٤٣
* افتتاحية غير رومانسية ١٤٩
* الكويت مدينة البطولة ١٥٥
* تأمّلات . . . ١٦١
* تساؤلات عاشقة . . ١٦٧
* السؤال ١٧٣
* كيمياء البشر ١٧٧
* الاصطياف . . خارج حدود الذاكرة ١٨٣
* تجسّس . . يتجسّس . . تجسّساً ١٨٩
* الإجازة هذه المهمة المستحيلة ١٩٥
* تعال إلى جزيرتي . . تعال إلى باربيدوس ٢٠١
* دمعتان في بيت موزارت ٢٠٥
* كويتية في فينيسيا ٢٠٩
* قفا نبك . . على جدار برلين ٢١٣
* العقل . . يأكل نفسه ٢١٩
* عن القهوة . . والمقاهي . . ٢٢٥
* انتصارات الإنسان ٢٢٩
* حلم ليلة صيف . . ٢٣٣
* عربة الحرية ٢٤١
* مصر . . بيتنا الكبير ٢٤٥
* وحش جميل اسمه الكمبيوتر ٢٤٩
* الفهرس ٢٥٣